الفصل الرابع

البطل القومى
وقضيـــــة المصـــــير

obeikandl.com

obeikandl.com

إن إنتاج الأدب الشعبى العربى من الحكايات الشعبية وفير للغاية. ولعل أهم ما خلفه لنا هذا الإنتاج تلك السير الكثيرة التى تكشف كل منها عن واقع تاريخى محدد، عاشه الشعب العربى فى مرحلة كفاحه ونضاله، وربما تصورنا أن بعض هذه السير قد سبق البعض الآخر فى زمان تأليفه وانتشاره، فالأدلة العملية لا تسعفنا فى محاولة تاريخها زمنيا، ولكنها على كل حال كانت تروى جميعا، قبل تدوينها، فى زمن واحد تقريبا، وهو زمن مبكر نسبيا إذا قيس بالعصر المتأخر الذى دونت فيه. فالسموأل بن يحيى المغربى، اليهودى الذى اعتنق الإسلام فى عام ٥٥٨ هـ، يحدثنا فى مذكراته[١]، أنه كان يستمع إلى سيرة الأميرة ذات الهمة وسيرة سيف بن ذى يزن وسيرة عنترة، ويهمنا نص السموأل من حيث أنه يشير إلى أن السير الشعبية كانت تتعاصر، وأن الشعب العربى كان يستمع إليها جميعاً، ومعنى هذا أن الموضوعات المتنوعة التى تتناولها كل سيرة على حدة كانت تلبى احتياجات نفسية واجتماعية لدى الشعب العربى، ولعل هذا

(١) Martin Scheiner: Yahya al Magribie and seiner schrift Monatsschrift fur geschicte u. wissenschaft. Berlin 1898, s.127.

يدفعنا إلى الحرص على دراسة السير العربية دراسة علمية وفقا لأحدث مناهج دراسة الأدب الشعبى، لأنها بلاشك، تساعد مكتملة على الكشف عن روح الحياة العربية الإسلامية، ذلك الكشف الذى يعد أساسا لدراسة تراثنا الشعبى الحديث الذى نسعى الآن جاهدين إلى الكشف عنه ودراسته وتحليله.

وبينما كان المجتمع العربى يستمع إلى سيرة الأميرة ذات الهمة وسيرة عنترة وهى تصور له حوادث يعيش فى أعقابها، بل يعيش فيها وإن اختلف شكلها، كان يستمع فى الوقت نفسه إلى سيرة تحكى له عن حوادث عاشت فى الزمن البعيد هى سيرة سيف بن ذى يزن، ومع ذلك فإن الشعب العربى كان يتقبل هذه السيرة بنفس الاستعداد النفسى والمتعة اللذين كان يستقبل بهما سيرة أخرى مثل سيرة الأميرة ذات الهمة، الأمر الذى ساعد على أن تعيش السيرتان جنبا إلى جنب، على الرغم من تفاوت الحوادث زمنيا، وعلى الرغم من الاختلاف الشكلى الجوهرى الذى تعرض كل سيرة من خلاله أحداثها.

ويهمنا الآن أن نقدم ملخصا لسيرة سيف بن ذى يزن حتى يمكننا أن ندرسها وفقا لمنهج تحليلى محدد، سنشير إليه فيما بعد.

كان الملك الحميرى ذو يزن حاكما فى بلاد اليمن. وذات يوم قرر أن يغزو الشام حيث يحكم الملك بعلبك، فرحل بصبحة جيشه

ووزيره يثرب .. وفى أثناء الطريق شاهد الملك وزيره يسجد ويصلى عند بيت الله الحرام. فلما سأله الملك عن سبب سجوده قال: «أعلم أيها الملك الهمام، والأسد الضرغام، إنى رأيت فى الكتب القديمة والتواريخ والملاحم العظيمة أن الله تبارك وتعالى يبعث فى آخر الزمان نبيا هاشميا قرشيا اسمه محمد ﷺ ، وهو أقرب الأنبياء وخاتم المرسلين، ويهاجر من مكة إلى هذه الأرض الطيبة والذكية، ويكون بها مسكنه وقبره. وإنى أريد من حضرة سعادة الملك أن يعطينى إذنا أن أبنى بها مدينة وأسميها باسمى، وأن هذا النبى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويظهر الآيات البينات والمعجزات الباهرات[1].

فأعطاه الملك إذنا ببناء المدينة التى سميت باسمه يثرب، كما استطاع الوزير أن يقنعه بحقيقة الإيمان وبدين الإسلام الذى سوف يحمل النبى محمد رسالته بعد ذلك، فاقتنع الملك وأسلم على يديه. واستأنف الملك ووزيره السير إلى بلاد الشام، حيث دارت مبارزة بين الملك ذى يزن والملك بعلبك، غلب فيها الملك ذو يزن واستولى إثر ذلك على بلاد الشام. ثم قرر الملك ذو يزن أن يرحل بعد ذلك إلى بلاد الحبشة والسودان، إلى الملك سيف أرعد. وكان لسيف أرعد وزيران يسديان له النصيحة، هما الحكيم سقرديون والحكيم بحر قفقان الريف. فلما سمع سيف أرعد بقدوم الملك ذى يزن عليه يبغى حربه، طلب النصيحة من وزيريه اللذين نصحاه بألا يقدم على حرب الملك الحميرى حتى لا تتحقق دعوة النبى نوح على السلام.

(١) سيرة سيف بن ذى يزن، جـ ١، ص ٩ (مكتبة الجمهورية ـ القاهرة).

فلما سأل الملك عن هذه الدعوة قال له سقرديون: اعلم ياملك الزمان وفريد العصر والأوان، والحاكم على جميع الحبشة والسودان، أنه كان فى قديم الزمان نبى يقال له نوح عليه السلام، فأمر قومه أن يتبعوه فى قوله وأمره ونهيه فخالفوه، فدعا عليهم، فنزل من السماء مطر، ونبع من الأرض ماء وقطر، فأغرقهم جميعا، كل من كان خالف من قومه، ونجا هو ومن تبعه. ففى يوم من الأيام نام فى القيلولة وولداه سام وحام جلوس عنده، فهب الهواء على نوح فانكشفت عورته لأجل بيان سره وقصته. فتقدم سام فغطى عورة أبيه، فلما نظر حام عورة أبيه لم يستره وضحك عليه، فانتبه نوح من منامه، وماكان فيه من لذيذ أحلامه، فوجد الولدين يتشاجران ويتخاصمان. وكان حام جالسا عند رجليه وولده سام جالسا عند رأسه، وكانوا فى ذلك الزمان لم يعرفوا لبس السراويل، فلما انتبه نوح من منامه وجد حاما مبتسما ووجد ساما غاضبا، فقال لهم: مالكما تتخاصمان؟ وما الذى أنتما فيه تتشاجران؟ فذكر له ولده سام ماوقع من أخيه حام، وكيف ضحك على كشف عورته ولم يستره. (قال الراوى) فنظر نوح إلى ولده حام وهو مغضب، ودعا عليه وهو مجاب الدعوة. وقال له: سوّد الله وجهك ونسلك، وجعل نسلك وذريتك خداما وعبيدا لذرية أخيك سام ابن أمك وأبيك. وإننا نخاف أيها الملك الحاكم علينا أن هذه الدعوة تنفذ فينا على يد هذا الملك الوارد علينا[1].

(١) السيرة: جـ ١ ص ١٧.

ولهذا فقد قرروا أن يستبدلوا بالحرب خديعة تحقق نتيجة فعالة لايحققها القتال.

فنصح سقرديون الملك سيف أرعد أن يرسل إلى الملك ذى يزن جارية حسناء تحمل له السم بين خصلات شعرها، حتى إذا ماركن الملك ذى يزن إليها منفعلا بسحرها، قضت عليه بسمها. ورحلت قمرية الجارية الحسناء تحمل الهدايا والسم إلى الملك ذى يزن، ولم تُجد الحيلة، لأن بحر قفقان الريف، الذى كان قد قرأ عن الدعوة الإسلامية كذلك، كما أن أصله يرجع إلى بلاد الحجاز، أرسل يخبر الملك ذى يزن بالحيلة قبل أن يقع فى شراك قمرية. وبهذا اكتشف سر قمرية. ومع هذا فقد وقع ذى يزن أسير حبها، وتزوج بها، وأنجب منها ولدا ولد بعد وفاة الأب ذى يزن. وورث الابن علامة تميزت بها أسرة ذى يزن الحميرى، وهى شامة على خده.

ولما كانت قمريةٌ قد أصبحت ملكة بعد وفاة زوجها، فقد خشيت أن يشاركها ابنها الحكم حينما يكبر، ولهذا فقد عزمت على إبعاده عن بلاده منذ صغره، وطرحت به، وهو رضيع بعيدا فى الخلاء. وهناك عطفت عليه غزالة وأرضعته ثم رحلت بعيدا عنه. ولم تكن تلك الغزالة سوى ملكة مسحورة من ملوك الجان، متزوجه بالملك الأبيض الذى يسكن بجبل القمر عند منابع النيل. وكانت لهذه الملكة ابنة تسمى عاقصة، فأصبحت تلك الابنة الجنية أختا لولد قمرية فى الرضاع.

وبعد أن تركت الغزالة المسحورة الابن، رحلت إلى زوجها وأخبرته بما رأت، فلامها على تركها الطفل وحيدا، وألزمها أن ترحل مرة أخرى لتحضر الطفل فترعاه حتى يشتد عوده. ورحلت الغزالة المسحورة لتحضر الطفل، ولكن صيادا كان قد عثر عليه وأحضره إلى الملك أفراح ملك ذلك المكان. وكان قد ولد الملك أفراح ابنة سماها شامة، إذ ولدت بشامة على خدها شبيهة بشامة ابن ذى يزن تماما. فرحب الملك أفراح بالولد، وقرر أن يربيه مع ابنته شامة، كما أطلق عليه اسم وحش الفلاة، حيث أنه وجد وحيدا فى الفلاة. ولما علم الوزير سقرديون ـ وزير الملك سيف أرعد ـ بذلك، حذر الملك أفراح من فعلته تلك، إذ أنه قرأ فى الكتب أن هلاك آل حام سيتحقق إذا التقت شامتان من نوع واحد ولم يقر لسقرديون قرار إلا عندما حضرت الغزالة المسحورة وأخذت الطفل ليتربى عندها، على أن تعيده إلى الملك أفراح بعد ثلاث سنوات.

ومرت السنوات الثلاث، وبرّت الغزالة المسحورة بوعدها، وأحضرت وحش الفلاة إلى الملك أفراح، وحذر الوزير سقرديون الملك أفراح مرة أخرى، وأرغمه على إبعاد وحش الفلاة، فأرسله الملك أفراح إلى إنسان مارد هو عطمطم خراق الشجر، الذى تعلم وحش الفلاة على يديه فنون الشجاعة. وبعد فترة تعلم فيها وحش الفلاة فنون الشجاعة وأساليب القوة، تركه عطمطم ليعود إلى أهله، فسار وحش الفلاة على غير هدى حتى تقابل مع رجل أعجمى كأنه واقف ينتظر قدومه منذ زمن. قال له الأعجمى: اعلم ياولدى

أنى يقال لى عبد لهب، وقد قرأت شيئا من الكتاب فرأيت فى ذلك الغار كنزا وهو فى ذلك المكان من قديم الزمان. وعليه الخدام من الجان، وفيه سوط من الجلد مطلسم، وعليه الخدم فى ذلك البر والآكام، ولا أحد يأخذ ذلك السوط من دون الملا إلا غلام يقال له وحش الفلا، غريب يأتى من ذلك البر والخلا[1].

وكان الأعجمى يود أن يستدرج وحش الفلاة حتى يحضر له السوط السحرى ثم يتنكر له. ولكن وحش الفلاة أسرع فى إحضار السوط وضرب به الأعجمى فقضى عليه. ورجع بالسوط إلى بلاد الملك أفراح.

وهناك علم أن شامة ابنة الملك أفراح قد سُلط عليها جنى أراد الزواج بها، بل حدد لذلك ميعادا يأتى فيه ليأخذها. وقد تصادف مجيئه مع وصول وحش الفلاة الذى هوى عليه بالسوط وقضى عليه.

وطلب وحش الفلاة أن يتزوج بشامة. ولم يكن الملك أفراح رافضا لهذا الزواج، وإنما كان مترددا بين حبه لوحش الفلاة وإعجابه بشجاعته من ناحية، وتحذير سقرديون له من التقاء الشامتين من ناحية أخرى .. ولهذا فقد أوعز سقرديون للملك أفراح أن يضع العقبات أما وحش الفلاة فى سبيل إتمام هذا الزواج، فطلب منه أولا أن يحضر رأس سعدون الزنجى، البطل المغوار الذى لايشاركه

(١) السيرة جـ١ ص ٤٣.

أحد بطولته .. ورحل وحش الفلاة ليحضر رأس عبدون وتقابل معه وحش الفلاة ودارت بينهما معركة حامية «فبرك عليه وحش الفلاة، وسل خنجره فى ذلك البر والخلا، وحطه على منبت شعره، فأيقن سعدون بهلاكه وعدمه، فقال ياسيدى وحش الفلاة، أنت فريد الدهر والعصر، أتريد أن تذبحنى ذبح البقر فى ذلك البر والهجر؟ فرفع يده عن رقبته، وقام من وقته وساعته. فعندما قام سعدون وقعد، ومد يده وراءه وقال اضرب رأسى، هكذا الرجال ياسيد الفرسان والأبطال».[1] عند ذلك استحيى وحش الفلاة أن يقتله، وتحول العداء بذلك إلى صداقة. وأصبح عبدون من رجال وحش الفلاة المخلصين، وبدلا من أن يرجع وحش الفلاة برأس عبدون رجع به حيا إلى الملك أفراح.

ولم يتمكن الوزير سقرديون من الاعتراض على ما فعله وحش الفلاة، ولكنه أوحى إلى الملك أفراح أن يلقى عليه تبعة أخرى بقصد إبعاده عن شامة، وهى أن يحضر كتاب النيل حلوانا لزواجه بشامة. فقال وحش الفلاة: وايش مرادك بهذا الكتاب، وما فائدته فى هذه الأرض والهضاب؟ فقال الحكيم: أيها البطل الفضيل، والسيد الجليل، من يبقى عنده هذا الكتاب تصير جميع الحبشة والسودان تبعا له[2] فعزم وحش الفلاة على إحضاره مهما كلفه هذا من ثمن.

---

(١) السيرة: جـ ١ ص ٦٢.

(٢) جـ ١ ص ٦٧.

وسار وحش الفلاة ممتطيا صهرة جواده «مدة ستين يوما بالتمام»، وهو يقطع الطرقات فى البرارى المقفرات، ولم يجد فى طريقه أحدا من المخلوقات. فأشرف على جبل عال وحوله روضة نزهة للناظرين، بها أشجار باسقة وأنهار دافقة .. وفى جانب ذلك الجبل من أعلاه صومعة، فسار حتى وصل إلى تلك الصومعة وهو يقول: لعل الله تعالى أن يجعل فى ذلك المكان منفعة، ولما وقف على باب تلك الصومعة سمع من داخلها صوت إنسان يذكر الرحيم الرحمن وهو يقول: ياحنان يامنان، ارحم عبدك الفان، أنت الباقى وكل من عليها فان، فلما سمع وحش الفلاة ذلك الإنسان اطمأن قلبه، ولكن ما يعلم إن كان هذا من الإنس أو من الجان. فتقدم وحش الفلاة إلى باب الصومعة، ودموعه على خدوده متتابعة، وصاح السلام عليك يا أيها الساكن فى هذا المكان، إن كنت من الإنس أو من الجان، لأنى ما رأيت غيرك فى هذه الوديان .. وإذا ذلك الشخص يقول له عليك السلام ورحمة الله وبركاته، وأهلا وسهلا بملك بلاد اليمن، وغيرها من الأمصار والدمن، والحاكم على هذه الأقطار، وسائق النيل من بلاد الحبش إلى أراضى الأمطار، مانع الظلم والفتن، وحاكم صنعاء وعدن، وصحارى الحبش وما يتبعها من القرى والمدن، الملك سيف بن ذى يزن. أنزل ياملك عن الحصان، واربطه تحت الصومعه فى تلك الصخرة، واصعد إلى فى هذا المكان ياملك الزمان حتى آنس معك بالكلام .. فلما سمع وحش الفلا ذلك المقال قال:

ياعمى لمن تقول هذا المقال وأنا اسمى وحش الفلا بين الرجال؟ فقال له: صدقت ياملك الزمان فى هذا المقال، وأعلم أن هذا الاسم سماك به الملك أفراح، وأما اسمك الأعلى فهو سيف من عند الملك الفتاح».[1]

وهكذا حدد الشيخ لوحش الفلاة شخصيته عندما نطق باسمه الحقيقى واسم أبيه كما حدد له مهماته فى المستقبل، فلما سأله سيف عن مكان كتاب النيل قال له:

«أنت إذا طفت الدنيا من الشرق إلى الغرب، لا تعرف طريق هذا الكتاب، إلا إذا كانت لك عناية من الملك الوهاب. ولكن حيث أنك دخلت فى دين الإسلام، يلزمنا مساعدتك ياابن الملوك الكرام»[2]. ثم أرشده إلى مكان دابة غريبة تقف دائما عند شاطئ البحر، وطلب منه أن يركبها، فهى التى تحمله إلى مكان كتاب النيل. وفعل ذلك سيف. ثم ظهرت له الملكة طامة ابنة الحكيمة عاقلة وشرحت له سبب ظهورها له فى هذا المكان فقالت: «لما ربيت أنا قلت لها (أى لأمها) انظرى من أتزوج أنا من الرجال، فضربت الرمل وخرجت الأشكال وقالت لى إن زوجك من بلاد اليمن، وهو الملك سيف بن ذى يزن، فقلت لها: وهذا إيش يجمعنى عليه وهو فى بلاد بعيدة؟ فقالت: إنه يخطب بنت أفراح ويطلب منه كتاب النيل فى

(١) جـ ١ ص ٦٩.
(٢) جـ ١ ص ٧٠.

مهرها وحلوانها فيأتى فيأخذه من هذه البلاد وأنا أساعده على أخذه، ويقاسى التعب الشديد وأنا الذى أقوم وأنجده لأجل أن أزوجك إياه»[1].

وهكذا دخل سيف بمساعدة طامة مدينة قيمر التى يحكمها الملك قمرون للاستيلاء عن كتاب النيل. وبينما وقع سيف أسيرا داخل جب، إذ بيد تمتد إليه وتقدم له السوط المطلسم، وقد كانت تلك اليد هى يد عاقصة أخت سيف فى عالم الجن، وقد جاءت إليه لتنقذه من ورطته، وتخبره بأن الجنىّ الذى شاء ذات يوم أن يتزوج بشامة وقطع سيف يده بسيفه المطلسم قد فرض عليها أن تتزوج به، وهى تود لو أن سيفا خلصها منه، فرحل معها سيف بعد أن خلصته من الجب، ليجهز على ذلك الجنى بسوطه. وفوجئ سيف بأن الجنى قد أسر أربعين صبية من مختلفة البلاد والأقطار، من بينهن ناهد بنت ملك الصين الأعلى، التى أطلعتها النبوءة بأن سيف بن ذى يزن الحميرى سيخلصها ويتزوج بها، فخلص سيف الأربعين صبية وأرجعهن إلى بلادهن، فيما عدا ناهد التى رفضت أن ترحل حتى تتزوج به. وهكذا أصبح أمام سيف أن يتزوج بكل من شامة بين الملك أفراح وطامة بنت الحكيمة عاقلة، وناهد بنت ملك الصين الأعلى.

وبعد أن قطع سيف يد الجنىّ الثانية وخلصّ البنات من أسره، اقترحت عليه عاقصة أن تطلعه على الأقاليم السبعة المرصودة. فوافق

(١) جـ ١ ص ٧٣.

سيف، وحملته عاقصة على ظهرها وطارت به فى الفضاء وأنزلته فى مدينة يتشاجر فيها بعض الأخوة بسبب قلنسوة سحرية، يختفى من يرتديها عن الإنس والجن. واقترح سيف على الأخوة أن يفض النزاع فيما بينهم، وهو يضمر فى نفسه أن يستحوذ على هذه القلنسوة السحرية التى تعينه فى مغامراته. فطلب من الأخوة أن يسيروا بعيدا عنه، وأن يقذف هو بالقلنسوة، فيحصل عليها أول من يدركها. ولما فعل الأخوة ذلك، لبس سيف القلنسوة، وبذلك اختفى عن أعينهم، ثم رحل بعد ذلك إلى بلاد الملك طالوت خان صاحب الخاتم السحرى الذى إذا أشار به إلى عدو فإن رأسه تنفصل عن جسده، فاستطاع سيف أن يقتل عبود خان وأن يستولى على الخاتم السحرى، وأن يحول الناس عن عبادة النار إلى عبادة الله.

أخذت طامة تبحث عن الملك سيف ولكنها لم تجده، فلما ضربت الرمل عرفت مكانه ولحقت به وسرقت منه القلنسوة. وشاءت أن تحتفظ بها رهينة حتى يتزوج بها سيف، فرد عليها الملك سيف قائلا: ياسيدتى خذيها بارك الله لك فيها، ويااليتكم ماعاونتمونى ولا بالخير جاملتمونى، وبعدما انصلحت أحوالى بدلتم المعروف وفعلتهم بدله المتلوف، وأنا مأتوكل على القلنسوة، لأن الذى يساعدنى هو الله فالق الحب والنوى».

ثم أخذ سيف كتاب النيل الذى كان قد استولى عليه من قبل، ورحل إلى بلاد الملك أفراح، لكى يقدم إليه كتاب النيل حلوانا لزواجه من شامة. ولكنه حينما وصل، وجد أن الوزير سقرديون قد

أرسل إلى أخيه سقرديوس يطلب منه أن يحاول التأثير على الملك سيف أرعد لكي يتزوج بشامة، وبذلك تتم الفرقة بين سيف وشامة، ورحب الملك سيف أرعد بهذا الاقتراح، وأرسل رسلا تطلب شامة من أبيها أفراح الذى كان من أتباعه، ووصل سيف فى تلك اللحظة الحاسمة، فاستطاع، بمعونة سعدون الزنجى، أن يقضى على رجال سيف أرعد. ثم حدث بعد ذلك أن وفد إلى الملك أفراح رجال سيف أرعد الذين كان قد أرسلهم فى صحبة قمرية، لقد جاءوا إليه يشتكون من سطوة قمرية التى استبدت بالبلاد إلى درجة أنها طرحت بابنها فى الفلاة لكى تتخلص منه، عندئذ طلب الملك أفراح من الملك سيف أن يرحل على رأس جيش ليخضع تلك المرأة التى استقلت بحكم بلاد الملك ذى يزن، وطغت وتكبرت.

ودارت معركة حامية بين قمرية والملك سيف وهو يجهل أنها أمه. فلما شعرت قمرية بقوته حاولت أن تغريه بفتنتها وجمالها، ولكن سيفاً لم يخضع لإغرائها، وفجاة وقع بصر قمرية على العقد المعلق برقبة سيف. وهنا وقفت جامدة الحركة، إذ لم يكن العقد سوى ذلك الذى علقته فى صدره حينما طرحت به فى الفلاة، فلما تذكرت الشامة التى بخده، أيقنت أنها إنما تصارع ابنها، ولم تملك بعد ذلك سوى أن باحت بسرها، مستخدمه فى ذلك كل أساليبها الأنثوية حتى صفح عنها، وسكن إليها فى الوقت الذى أخذت تضمر له فيه الخديعة، فقد زعمت له بعد ذلك أن أباه قد ترك له كنزا خبأه له فى مكانه بعيد وعليه أن يصطحبها حتى يعرف

مكانه ... ولم يكذبها سيف، ورحل معها حتى خلت به فى مكان ناء وأخذت تطعنه بسيفها وولت هاربة، وهى تظن أنه مات متأثرا بجراحه. وأخذ سيف يتضرع إلى الله وقد أثخنته جراحه، «فلما أتم تضرعه وشكواه، إذا بطائرين قد أقبلا من البرارى المقفرة ونزلا على تلك الشجرة، وكل واحد على فرع منها، ووجهه مناظر إلى وجه الآخر. وأول ما تكلما قالا كلمة الإخلاص المنجية من القصاص، لا إله إلا الله وحده لاشريك له .. وكانت هذه الكلمة منهما سوية، وبعدها قال أحدهما الآخر، أرايت يا أخى ما فعلت هذه الملعونة قمرية فى ولدها، ضربته بالسلاح حتى أثخنته، ونحن ياأخى حضرنا هنا ورأينا هذا الحال، فما يكون عندك يا أخى من الأعمال؟ فقال الطير الثانى لا تعترض ياعبد السلام، على ما حكم به الملك العلام، واعلم أن هذه قمرية والدته لا كلام، وأنها تفعل به سبع مكايد تمام»[1].

ولم يكن هذان الطائران سوى روحى شيخين طيبين جاءا لينقذا سيفا من موت محقق. وشفى الملك سيف واستعد للرحيل إلى بلاده. وفى أثناء الطريق لقى رجلا طيبا هو أخميم الطالب، ظهر له فى الوقت المناسب لكى يعينه على الحصول على أدوات سحرية تعينه فى نجواله، فأخبره أنه يقوم على حراسة قبر سام منذ زمن طويل، وأن سام يحتفظ له بداخل قبره بلوح سحرى وحسام، وعلى سيف أن يدخل القبر فيحضر اللوح والحسام، دون أن ينظر لحظة

(١) جـ ١ ص ٧٣.

واحدة إلى وجه سام. ودخل سيف إلى القبر وأحضر اللوح والحسام، ولكنه لم يستطع أن يقاوم الرغبة الملحة فى رؤية وجه سام، فلما فعل ذلك سمع صوتا يحذره وينذره بأنه سوف يصادف المتاعب جزاء مجاوزته المحظور.

ولكن سيفا كان قد حصل على اللوح السحرى. فلما وقع سيف فى المتاعب معك اللوح فظهر له خادمه عيروض فطلب منه أن يحمله إلى بلاده.

ومرة أخرى تضرعت الأم إلى ابنها لكى يصفح عنها، بل إنها قدمت له السيف ليقتلها، ولكن سيفا أبى أن يقتلها وصفح عنها، فلما علمت الأم أنه يحمل معه اللوح المسحور، دبرت حيلة وخطفت اللوح وطلبت من خادمه عيروض أن يحمل سيفاً ويلقى به فى بلاد الطودان، كما يحمل شامة ويلقى بها فى بلاد الغيلان، وهمّ عيروض بتنفيذ أوامر قمرية. فلما اعترض سيف على فعله قال له عيروض: مابقيت تكلمنى ولا كلمه واحدة، فإنك فرطت فى لوحى ولا عرفت بقيمتى وضيعتنى»[1] «إنك أنت الظالم لنفسك، حيث أنك أعطيت اللوح لأمك فقاس بنفسك طول همك ولا تطل معى كلاما[2]».

ومع ذلك فإن سيفا الإنسان الطيب لم يعدم ظهور القوى الخيرة له. فقد ظهرت له عاقصة لتنقذه من ضيقه، وتجمع بينه وبين شامة

(١) جـ ٢ ص ١٥٤.
(٢) جـ ٣ ص ٢٠٢.

فى بلاد الملك تاج، حيث استطاع أن يهدى الناس إلى الإسلام، كما ظهر له برنوخ الساحر، الذى تألم من فعل الأم من ابنها ورحل إليها فى بلادها ليصيبها بداء وبيل يشل حركتها وتفكيرها. واستدعت قمرية عيروضا لتشتكى إليه من دائها فقالت: «ياعيروض، إن الذى بى ماهو من الإنس، وأنا أظن أنه شغل الجان: فقال. لها نعم ياستاه، وإنه فعل رجل ساحر يقال له برنوخ، والذى أرسله لك ولدك الملك سيف لأنه أسلم على يديه لما رميته فى وادى النيران وجبال الدخان والفج العميق، فقالت له: وولدى سالم؟ قال لها نعم، وكلما ترميه فى مهلك تخلصه أخته عاقصة، فقالت له، أمرتك أن تأتينى بالاثنين وهما عاقصة وبرنوخ حتى أقتلهما، فقال لها ما أقدر، لأن برنوخ يحرقنى، وعاقصة لايقدر أحد على قبضها»[1].

واستمر سيف يحصل من القوى الخيرة على ما يعينه على كشف أسرار العالم المجهول. فقد حصل على حيوان سرطانى يعيد للمكفوف بصره. ودخل بعد ذلك فى بلاد تعلّق على أبوابها رؤوس قتلى، فلما سأل عن ذلك علم أنها رؤوس الذين عجزوا عن شفاء ابنة الملك من العمى. ووجدها سيف فرصة سانحة لا لكى يعيد للأميرة بصرها فحسب، ولكن ليحول عالم هذا الملك كذلك إلى دين الإسلام، ونجح سيف فى المهمتين. وفوجئ سيف بأن الأميرة التى رد إليها بصرها هى ناهد ابنة ملك الصين الأعلى، وكان سيف مترددا فى الزواج منها، فدعت عليه بأن يرجع إليها بعد

(١) جـ ٤ ص ٢٣٧.

أن يقاسى الأهوال، ورد هو عليها قائلا: «وتكونى عمياء ودواؤك على يدى».[1] وتحققت الدعوتان، فرجع إليها سيف بعد أن قاسى الأهوال كما كان شفاؤها على يديه.

وفجأة ظهر عيروض وحمل الملك «سيف» والملكة ناهد ليحضرهما إلى بلاد اليمن. وكان السبب فى ذلك هو برنوخ الساحر، فقد أخذ يستدج الملكة قمرية حتى سرق منها اللوح وطلب عيروض خادمه وأمره أن يحضر الملك «سيف» على التو.

وفوجئت قمرية برجوع سيف سالما، فأخذت تتضرع إليه طالبة العفو، وحذر برنوخ الساحر الملك سيف من تساهله معها. فرد عليه سيف قائلا: ياأخى دعها تفعل ماتشاء فإنها أمى، وهى واقفة تتذلل بين يدى، لعلها ياأخى تكون تابت[2]. وأما الملك سيف بن ذى يزن فإنه أقام على كرسى الملكة، ودخل عليه الخدم وخضعوا بين يديه كما يفعلون بالملوك. فقال الملك: ارفعوا رؤوسكم، فإن السجود لايكون إلا للملك المعبود، وأما أهل الإيمان ودولة الإسلام فما عندهم تحية إلا السلام[3].

ومرة أخرى فرط سيف فى اللوح، وسرقته الأم، وكانت قد عرفت قصة القلنسوة المسحورة فطلبت من عيروض خادم اللوح أن يحملها إلى البلاد التى استولى فيها سيف على القلنسوة.

وهناك أخبرت أصحاب القلنسوة بأن سارقها سوف يحضر إليهم،

(١) جـ ٤ ص ٢٥٣.
(٢) جـ ٤ ص ٢٦٣.
(٣) جـ ٤ ص ٢٦٥.

وعليهم أن يفعلوا به كل سوء. ونفذ عيروض ما أمر به، فحمل «سيف» فجأة ليطرح به من على، كما أمر، فى بلاد أصحاب القلنسوة. وصرخ سيف فى عيروض فأجابه غاضبا:

«ياملك أنت مالك عقل ولا تقبل نصيحة ناصح ما، كأنك قطعة حجر يتعثر فيك كل واحد.»

كيف تريد أن تبقى ملكا وسلطانا ويخدمك الإنس والجان، وتدور يدك على حكماء وسحرة وأرباب العلوم والأقلام، وأنت على هذا الحال ناقص العقل خرفان، ويدخل عليك بدع امرأة كافرة بالعزيز الديان وتشتت شملك من مكان إلى مكان، وأنت ما أنت عاقل كأن عقلك ناقص مختلط بجنان. أتعبت قلب برنوخ الساحر، وأقام أياما وليالى حتى خلص لوحى منها بالاحتيال وما ملكته فى يدك، كأنك ما تعبت عليه حتى رميته من رقبتك وفرطت فيه[1]».

وألقى عيروض الملك «سيف» من عل كما أمرته قمرية، فهوى مثخناً بجراحه، ثم ظهرت له عاقصة لتخلصه من آلامه. واكتشف سيف فى تجواله مملكة من النساء، كل امرأة فيها تملك ثوبا سحريا من الريش، إذا ارتدته حلقت كالطائر فى الفضاء. فأعجبته منية النفوس من بين هؤلاء النسوة، وتمكن من خطف ثوبها حتى لاتطير منه، وبذلك تمكن من أسرها وتزوج بها.

وتمكنت عاقصة من سرقة اللوح من الأم، وبذلك أمرت عيروض أن يرجع سيفا إلى بلاده، وقررت قمرية فى هذه المرة أن تصنع لوحا مزيفا وتعلقه فى صدر سيف بعد أن تسرق اللوح

(١) السيرة جـ ٤ ص ٢٧٦.

الأصلى، ولما علمت عاقصة بذلك صممت أن تقتل هذه المرأة لامحالة، فظلت تبحث عنها حتى اهتدت إلى مكانها، ثم حملتها إلى عنان السماء وألقت بها فهوت بلا أنفاس وذهبت إلى سيف لتخبره بذلك.

وعلى الرغم من تلك الأفعال التى ارتكبتها الأم مع ابنها، فقد غضب كل الغضب من عاقصة وقاطعها، ومع ذلك فإن عاقصة لم تتخل عنه. وهبطت إليه وهو جالس على عرش لتحييه فقال لها: «ياعاقصة أتيت تذكرينى بهمى وغمى بعدما قتلت أمى. فقالت له، والله إنك ارتحت منها ومن فعلها، وكيف لا أقتلها وهى فى كل وقت ترميك فى المهالك وهى كافرة بمالك الممالك؟ وحق مقام الخليل ابراهيم إن رجعت، تذكرها ثانية مابقيت أعود إليك»[1].

ومهما يكن من غضب الملك سيف وحزنه على وفاة أمة، فقد ودع سيف مدة من العذاب النفسى، كما تخلص كلية من سيطرة أمه عليه، وبدأ يتهيأ للدخول فى مرحلة أخرى مليئة بالمغامرات التى حددت له من قبل لكى يصل إلى هدف معين، هو ذلك الذى أنبأه به الشيخ الطيب الذى عرفه بحقيقته المجهولة لديه.

وتبدأ هذه المرحلة بسعى سيف بحثا وراء منيه النفوس. فقد حدث أن طامة حصلت على ثوب منية النفوس المصنوع من الريش، الذى كان سيف يحتفظ به عنده حتى لا تستخدمه منية النفوس. ورأت منية النفوس ثوبها الريش فى يد طامة، فأخذت تتوسل إليها أن تعطيها إياه حتى تجربه أمامها، ودفع الفضول طامة لأن ترى بعينها

(١) السيرة جـ ٥ ص ٣٨٢.

سحر هذا الثوب فأعطته لمنية النفوس التى ارتدته وطارت رويداً رويداً حتى اختفت عن الأعين.

وهكذا رحل سيف وراء منية النفس، بل رحل ليكشف أسرار العالم المجهول ويخرج أناسه من الظلمات إلى النور. وفى الطريق قابله شخص قدم نفسه إليه بوصفه رسولا ينتظره من قبل الخضر عليه السلام. وقدم إليه الشيخ لوحا أقوى فى سحره من لوح عيروض، لأن لوح عيروض لا يمكنه من دخول بلاد منية النفس. كما أن هذا اللوح لا يحتفظ به سيف فربما سرق منه وإنما يحتفظ به خادم اللوح وهو الخيرقان.

وكان كل مكان يمر به الملك سيف يجده مرصودا بفعل السحر، ويعيش فيه أناس يعبدون النار أو زحل.. فكان سيف مكلفا بمهمتين. مهمة فك الأرصاد، ثم مهمة تحويل الناس من عبادة النار إلى عبادة الواحد القهار، ولم تكن القوى الخيرة تتردد فى مساعدة سيف فى سبيل تحقيق المهمتين.

وأخيرا وصل الملك سيف إلى جزيرة الملكة منية النفس، وهى جزيرة لايسكنها سوى النساء. وسبب ذلك أن والد منية النفس كان قد اختلف مع أخيه بسبب عدم موافقة الأول على زواج ابنته منية النفوس من ابن عمها، فأراد الأخ أن ينتقم من أخيه بأن صنع سحرا استطاع عن طريقه أن يحمل كل الرجال من جزيرة أخيه ولا يبقى بها سوى الإناث. ورد عليه الأخ والد منية النفوس بسحر آخر استطاع عن طريقه أن يعزل نساء جزيرة أخيه عن الرجال. وهكذا

أصبحت هناك جزيرة للنساء وأخرى للرجال، وكل جزيرة وضعت حولها الارصاد حتى لا يتمكن أحد من دخولها.

ووعد الشيخ أبو النور سيفا بمساعدته على فك الارصاد قال له: «ياملك سيف نحن أجنحتنا ذكر الله، والله يوصلنا بقدرته إلى مانريد»[1]. وبهذا استطاع الملك سيف أن يدخل جزيرة منية النفوس، فلما سأل عن منية النفس علم أنها أسيرة تقاسى الهوان، فقد كان قومها قد غضبوا عليها وعاقبوها جزاء تركها الجزيرة وزواجها من الملك سيف، فخلصها الملك سيف ومعها ولدها مصر، الذى كانت قد أنجبته فى بلاد الملك سيف، وترك سيف هذه البلاد بعد أن هدى أهلها إلى الإسلام.

ثم دخل بلاد الكهين شعشعان. وعلم الشعشعان بقدوم الملك سيف، «فدخل فى بيت رصده، واختلى وعزم وهمهم ودمدم، وإذا بمارد أقبل عليه وقال نعم ياكهين الزمان. فقال له الشعشعان: ياأيها المارد، أمرتك أن تسير إلى جيش المؤمنين وتأتينى بذلك الرجل المسمى سيف بن ذى يزن وأن أعتقك. فقال له المارد سمعا وطاعة. ثم أنه طلع من عنده وغاب ساعة وعاد إليه وهو يرتجف، وقال له: ياكهين الزمان، ماقدرت أن أقرب منه، لأنه لابس رقا من جلد غزال مطلسم بأسماء عظام، وإذا أراد جنّىّ أن يدخل عليه مضمرا خيانته، يحرق لوقته وساعته[1]» ودارت معركة كبيرة بين جيش الكهين

(١) السيرة جـ ٦ ص ٥٢.

الشعشعان وسيف بن ذى يزن. ووجد سيف نفسه وحيدا فى الميدان، فطلب العون من الإله الأكبر، وإذا برجاله يفدون إليه من كل مكان. فصاح الملك سيف «أبشروا ياعصبه الإسلام، فلقد أنجدنا الملك العلام، ومنّ علينا بالإحسان وأغاثنا بالعساكر والفرسان. إنهم عساكرى وأولادى ودساكرى وأجنادى، وهؤلاء المقدمون الأربعة أنصارى ونوابى على بلادى، وما أتوا إلا لأجل السلام على، وأنا نظرت فى أوائلهم فرأيت ولدى الملك دمر وأخاه نصرا وبرنوخ الساحر، وأخميم الطالب والحكيمة عاقلة ومن خلفهم سعدون الزنجى وسابك الثلاث وميمون الهجام ودمنهور الوحش والملك أبو تاج والملك أفراح، وأما القعقعة التى ترونها مثل الرعد فإنها عاقصة على اليمين وعلى اليسار عيروض[٢]».

وهكذا انتصر الملك سيف وكر راجعا إلى بلاده مع أولاده ورجاله. وهناك فى بلاد اليمن طلب عيروض من الملك سيف أن يحقق له أمنيته وهى زواجه من عاقصة.

ووافقت عاقصة على ذلك بشرط أن يحضر لها عيروض بعض كنوز النبى سليمان مهرا لها، وهى تاج وإكليل ومنطقة. ورحل عيروض لتوه لكى يحضر هذه الأشياء بعد أن سلم لوحه للملك سيف. وطلب منه أن يمعك اللوح بعد مرور ستة أشهر على رحيله،

(١) السيرة جـ ٦ ص ٧٦.
(٢) السيرة جـ ٦ ص ٨٣.

فإذا لم يحضر عيروض فعليه أن يمعكه للمرة الثانية. وإذا لم يحضر فلا يمعكه المرة الثالثة وإنما يكون ذلك علامة على أن عيروضا فى خطر ومرت الأشهر الستة، وتذكر الملك سيف خادم لوح، فمعك اللوح المرة الأولى والثانية فلم يظهر عيروض، فتأكد الملك سيف أنه فى خطر فقرر أن يرحل إليه ليبحث عنه بعد أن ترك ابنه دمر حاكما فى أرض اليمن.

ومر سيف، فى طريقه إلى الكنوز، بمدينة العمالقة التى يحكمها الملك العملاق وأعجب الملك بشجاعة سيف فعيّنه وزيرا له، ورضى الملك سيف بذلك حتى ينشر الإسلام فى هذه البلاد. ونجح فى ذلك، وازداد العملاق حبا له، وأراد أن يزوجه ابنته العملاقة، ولكن سيفا تمكن من الهرب إلى جزيرة يحكمها الملك الطيلقان. وكان الملك الطيلقان قد فزع مع شعبه إلى الجبال وترك بلاده التى سكنها تنّين مهول، وأبدى الملك سيف استعداده لكى يخلصه من التنين. فلما تمكن من ذلك آمن الملك الطيلقان برسالته، وأسلم وشعبه على يديه.

ثم رحل الملك سيف إلى مكان يسكنه جنى يسمى البرق اللامع. وكان هذا الجنى قد أسر جماعة من الإنس يقومون بخدمته، من بينهم أنيسة بنت أيراه بن غليون، التى دلته على السيف المرصود، سيف أصف بن برخيا وزير النبى سليمان. وبدون هذا السيف لا يمكن القضاء على البرق اللامع، كما كان لهذا

السيف وظيفة أخرى وهى التمييز بين المؤمن إيمانا حقا والمنافق الذى يدعى الإيمان.

وظهرت عاقصة للملك سيف وأخبرته بأن الملك سيف أرعد يستعد للهجوم على بلاده، ولكن الملك سيف عزم على أن يخلص عيروضا من المأزق الذى وقع فيه، بخاصة بعد أن ظهر له فى رؤياه يعتب عليه تركه معذبا فى بلاد الكنوز. وجاء الجن ليحملوا سيفا إلى بلاد الكنوز. وقف سيف أمام بستان يؤدى إلى الكنوز التى يحرسها الجن ولا يفتح إلا لحامل سيف آصف بن برخيا، فلما دخل سيف وصل إلى «عفريت كبير الجثة، بين يديه عفاريت على صفة العسكر، ولكنهم مثل الجراد المنتشر، وهو جبار من أقوى الجبابرة الأشرار، ورأسه كالقلعة العالية وفمه مثل باب الوكالة بأسنان كدائرة الطاحون. «وكان هذا الملك كيهوب الذى قبض على عيروض وحبسه عنده وتولى عذابه[1]» «وبينما هم يضربونه وهو يستغيث إذا به التفت فرأى أستاذه الملك سيف خلفه .. وما قدر أن يسكت بل صاح بأعلى صوته: الحقنى يا سيداه[2]». فلما رأى كيهوب هذا الحال أمر الجان أن يكشفوا له الخبر، فلما رأى سيف الجان قادمين نحوه، حط يده على قبضه سيف آصف بن برخيا وجرده وهزه فى وجوههم، فخرجت منه بوارق نيران وقصدت أرهاط الجان .. فلما عاين الجان ذلك ولّوا هاربين .. فلما سمع

(١) السيرة جـ ١ ص ٢٦٨.
(٢) السيرة جـ ٩ ص ٢٨٧.

كيهوب هذا الكلام من الخدام، تعجب وأخذه الهيام وقام من ساعته على الإقدام، وسار حتى وصل إلى عند الملك سيف، فلما رآه سيف أراد أن يجرد الحسام فى وجهه، فصاح كيهوب وقال له اصبر ياملك الزمان، لا تجرد هذا الحسام بحق الملك العلام، حتى تخبرنى من أنت ومن أين أقبلت وإلى أين أنت سائر وما مرادك منا؟ فقال الملك سيف، أما أنا فالملك سيف بن ذى يزن التبعى اليمانى، وأما مجيئى فمن مدينة حمراء اليمن، وأما ما أريد، فأنا طالب ثلاث حاجيات، فالأولى أريد الفرجة على الكنوز، والثانية آخذ بدلة الست بلقيس والثالثة خلاص خادمى عيروض[1]» وكانت بلقيس قد أوصت بأن تكون البدلة للملك اليمانى بعد أن تفتح له الكنوز بابها فور نطقه بحسبه ونسبه.

وحصل الملك سيف على مبتغاه، واستولى على الكنوز وفيها بدلة بلقيس. وظهرت له عاقصة فجأة لترى البدلة. ولكن الملك سيف رفض أن يطلعها عليها لئلا تستولى عليها ثم ترفض الزواج من عيروض. وبعد ذلك خلص الملك سيف عيروضا من الأسر، ورجع الجميع إلى صحراء اليمن، فى الوقت الذى كان سيف أرعد قد ألحق الهزيمة بجيش تدمر، فى أثناء غيابه وأخيه مصر.

«وكان السبب فى غياب أولاد الملك سيف بن ذى يزن فى ليلة واحدة، هو أن الله تعالى خلق من جملة خلقه كهين عنيد كافر،

(١) السيرة جـ ٩ ص ٢٨٨.

يعلم السحر والكهانة. يفك الطلاسم ويستنطق أشكال الرمل وغيره. ومن جملة أفعاله أنه سأل جميع الجان الموكلين بالكنوز عن الذخائر فأعجبته ذخيرة واحد وهى كنز كوش بن كنعان، وهى خرزة ذات أوجه سبعة، وكل وجه عليه اسم خادمه. وهذه الخرزة لها سلسلة من الذهب الأحمر، وهى صناعة الحكماء والكهان اليونانيين .. وكل من يملكها تطيعه الخدام ويطيعه أهل الأقاليم. ومازال الحكام يتوارثونها إلى أن وصلت إلى هذا الكنز والذى وصلها فيه كوش بن كنعان صاحبه.. فلما سمع بهرام المجوس ذلك الكلام من الخدام، صاح بالنار ذات الشرار، ثم صاح على جماعة من الجان، وقال لهم ياويلكم ائتونى بهذه الخرزة التى فى كنز كوش بن كنعان، فقالوا له مالنا إلى ذلك سبيل، ولا نقدر نعبر الكنز، وإننا نخبرك عن ذلك .. إنك لن تصل إلى هذه الخرزة إلا إذا كان معك غلام له شامتان، ويكون من أبناء الملوك، واسمه مصر[1]».

وهكذا دبر بهرام خطة لاختطاف دمر ثم خطف مصر، واستدرج بهرام مصرا حتى سرق له الخرزة واستولى عليها، ولكنها رجعت إلى مصر بعد ذلك.

ولم سمع دمر بذلك، دب الحقد فى قلبه. وخطف الخرزة من أخيه ومعكها. فحضر له أكبر خدامها، وقال له لبيك ياملك الزمان، فقال له من تكون؟ فقال له ياملك أنا شيهوب الشاهق، ولى أخوة

(١) السيرة جـ ١١ ص ١١.

ستة، وهم غيهوب الصاعق وكيهوب العاصف، وبلدة وبردة، وأبونا الملك عرفجة، وأمنا الملكة عوسجة، ونحن السبعة نخدم السبعة الأوجه، وأبى وأمى يخدمان الرأسين، وهما الحافظان على كنز كوش بن كنعان[1]». وطلب دمر منه أن يرحل به إلى دمشق الشام ففعل.

وهناك أحب دمر الجابية، ابنة الملك جبرون، وطلب يدها من أبيها، ولكن الوالد كلفه بتبعات عسيرة، يتحتم عليه تحقيقها إذا شاء أن يتزوج بالجابية، لقد كلفه بأن يجرى الماء حول الشام ويكون قدر سبعة أنهر، كما عليه أن يبنى لها قصرا منيفا فى مدة وجيزة. ولم يكن من العسير على دمر أن يحقق ذلك عن طريق الخرزة السحرية. وتعجب الملك من ذلك، وحاول أن يعرف من ابنته الوسيلة السحرية التى يمتلكها زوجها، وكان دمر قد أخبر الجابية عن قصة الخرزة وكيف سرقها من أخيه، فأطلعت أباها على سر الخرزة، ورفضت أن تعطيها إياه، وإنما سرقتها لنفسها، ولما لم تعد الجابية تأمن جانب دمر بعد أن سمعت قصة غدره بأخيه، أمر شيهوب خادم الخرزة أن يأخذ دمر ويطرح به فى مكان مهجور، ففعل. وأما الجابية فقد لجأت إلى بيت المقدس خوفا من سطوة أبيها، حيث ذاع صيتها فى معرفة الغيبيات، وجاء مصر إليها ليسأل عن خرزته المفقودة فسلمتها له بعد أن أحبته وأرادت أن تتزوجه. فوافق مصر ووعدها أن يتزوج بها فور طلاقها من أخيه.

(١) السيرة جـ ١١ ص ٤٦.

ثم اجتمعت الإخوة ومن بعدهم الملك سيف بن ذى يزن فى حمراء اليمن بعد أن دمرها الملك سيف أرعد فى أثناء غيابهم. واستعد الملك سيف لأن يعيد بناء حمراء اليمن، ولكن الحكماء أخبروه بأن هذا العمل سيتمه أبناؤه، أما هو فمقدر له أن يعمر بلاداً أخرى سيطلق عليها اسم «مصر» نسبة إلى ولده مصر. ورحل الملك سيف إلى تلك البلاد مع نفر من رجاله. وبعض أولاده، وأمر «كلا منهم أن يبنى له مدينه ويسكن بها هو ورجاله، وكذلك الجيزة والروضة وابن بولاق وتكرور وعاقلة وأخميم[1]» ثم قال الملك سيف: «يا إخوانى، مرادى أن أقول لكم وأنتم تسمعون، اعلموا أننا عمّرنا البلاد، وأهلكنا الأعادى، والحساد، وأن البلاد من غير مياه يكون أمرها صعبا شديدا وعطشا أكيدا، وأريد منكم يا إخوانى المعاونة على سلوك المياه والغدران فى تلك الوديان، لأن الماء للبلاد شئ لابد منه ولا لهم غنى عنه[2]». فلما سمعت الحكيمة عاقلة ذلك الكلام، تقدمت هى من دون الرجال الكرام، وقالت له اعلم أيها الملك السعيد، والمولى الرشيد، أن هذا الوادى من قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، كان فيه جاريا بحر النيل، وكان جاريا بهذه الوديان، ومازال على هذا الأمر والشان، إلى أيام الطوفان، فالأرض قد كسيت بالتراب، وانعقدت فيها الرمال والهضاب، وأن النيل ارتصد وبطل صلاحه وفسد. وسبب ذلك أن الله كان خلق حكيمين أحدهما يسمى الحكيم جابر فى المشرق وجابلقا فى

(١) السيرة جـ ١٢ ص ١٥٣.
(٢) السيرة جـ ١٢ ص ١٥٣.

المغرب وكانت مدينة جابلقا بها نهر والثانية لم يكن بها ماء، فاستخدم الثانى سحره حتى سحب النهر من بلاد الأول إليه، ومازالا يسرقان النهر حتى كتب جابلقا كتاب النيل الذى لا يمكن لأحد أن يسرق النيل إلا بواسطته»[1] عندئذ تذكر الملك سيف كتاب النيل الذى كان قد استولى عليه من مدينة قمرون وقدمه للملك أفراح حلوانا لزواجه من ابنته شامة. وأخبرته عاقلة أن الكتاب الآن يقع فى حوزة الملك سيف أرعد ووعدته بأنها ستسرقه منه خلسة، كما أخبرته بأنه يحتاج إلى سبعة أشياء إن كان عازما على أن يجرى ماء النيل من قلعة الجبل، وهى: سيف آصف بن برخيا ليرد به أعوان الجان والكهان، وكتاب تاريخ النيل، فإن البحر لايمشى إلا تبعا له، والجواد المسمى ببرق البروق الياقونى، لأن أى جواد لايستطيع أن يصمد أمام صريخ الجان، وخرزة كوش بن كنعان، فإن خدمها ومالها من الأتباع ينفعون فى جداول البحر، وكذلك لوح الخليجان والرهق الأسود، ثم قالت له فى النهاية: وأيضا ياملك تحتاج إلى الحكماء والرجال والجنود والأبطال، وتفرغ قلبك لهذه الأشغال، حتى تجرى ماء النيل. ثم سألها الملك سيف عن الرهق الأسود فقالت له: ياملك هو مسجون فى أشد الحصار ولو كان مطلوقا ماكان بقى على وجه الأرض لا جان ولا ديار .. ولا تقل ياملك إن سيف آصف يقطع فيه ..»[2] والرهق الأسود من الجن الذين عصوا النبى سليمان فحبسه فى القصر الحديدى داخل عمود مجوف من الرخام.

(١) السيرة جـ ١٣ ص ١٥٤.
(٢) السيرة جـ ١٣ ص ١٥٥.

عندئذ نزح الملك سيف إليه، وطلب أن يصبح من رجاله إن هو خلصه من الأسر. فقال الرهق الأسود فى نفسه «هذا رجل مجنون، وأنا عمرى ماعاهدت أحدا أبدا إلا وأخونه. وأنا ماطاوعت سليمان بن داود ولا أصف ابن برخيا، فكيف أطيع هذا الرجل الإنسى وأكون له خادما أو تابعا؟ ولكن أنا أوعده أنى أطيعه، وبعدما يخلصنى أقتله وأخرج إلى دار الدنيا، وكل مارأيته أقتله، وأجعل الدنيا خالية من الإنس والجان، وأقيم فى الدنيا وحدى[1]».

ولكن حينما خلص سيف الرهق الأسود من الأسر، أبصر هذا عاقصة التى كانت بصحبة الملك سيف فوقع فى حبها، وطلب من الملك سيف أن يتزوج بها. وانتهز الملك سيف هذه الفرصة، ووعده أن يحقق له رغبته بعد أن يساعده فى جريان ماء النيل. ووافق الرهق الأسود فشمر عن ساعديه، وحطم الصخور والشلالات والجنادل، كما أحضر له الأشياء السحرية التى ذكرتها له عاقصة. وبهذا جرى النيل من المنبع إلى المصب، وروى أرض مصر الكريمة.

فلما حان موعد تحقيق رغبة الرهق الأسود بزواجه من عاقصة، استدرجه الملك سيف إلى جب تحت الأرض على زعم أنه يقيم له فيه الاحتفالات وهناك استطاع سيف أن يحرقه بالنار.

وخلا بعد ذلك الجو لعيروض فطلب الزواج بعاقصة، ورفضت عاقصة برغم إصرار الملك سيف على أن تتزوج به. فلما هددها سيف قررت أن ترجع إلى بلادها، أى بلاد الجن، وفى الطريق

(١) السيرة جـ ١٣ ص ١٥٥.

قابلها قوم الرهق الأسود وهم فى طريقهم إليه ليحضروا حفل زواجه من عاقصة، فأخبرتهم بأن الرهق الأسود قد حرق بالنار. ولما خشيت سطوتهم أخذت تستميل كبيرهم عبود النار ليتزوج بها، ففرح بذلك وطار معها إلى أبيها، وشاء الأب أن يتخلص منه فأخبره بأن أمر زواجها بيد أخيها الملك سيف لابيده، فانتظر عبود النار حتى طارت عاقصة وأحضرت الملك سيفاً عند أبيها. وهناك طلب الملك سيف من عبود النار أن يعلن إسلامه، فلما رفض أشهر الملك سيف فى وجه سيف آصف وقضى عليه، ثم طلب الملك سيف من صاعقة أن ترجع به إلى حمراء اليمن، ولكنها أصرت على أن تطلعه قبل ذلك على جبال القمر ومنابع النيل وقبة البللور.

وعندما وصلت به إلى قبة البللور أخبرته بأنها ستنتظره خارج القبة وعليه أن يشاهدها وحده. وذهل سيف لروعة القبة. ولمح سريرا بداخلها فاضجع عليه ليستريح ولكنه راح فى نوم عميق. ثم أفاق على شئ يحمله فى الهواء، فظن أنه عاقصة ولكنه كان ماردا خطف منه السيف وألقى بالملك سيف بين يدى «عجوز قهرمانة كبيرة الرأس ممطوطة البوز وقالت له: اعلم ياملك أنى من بنات ملوك الجان، وكنت جميلة فى صباى ثم ابتليت بداء الغيلان[1]» وطلبت من الملك سيف أن يتزوج بها، فأخذ يلاطفها حتى استرد سيفه، ثم هم وقتلها هى والمارد .. ووجد سيف بعد ذلك حصانا سحريا قدم له الطعام والشراب وحمله إلى قصر منيف. وهناك وجد نفسه أمام امرأة

(١) جـ ١٣ ص ١٦١.

ظنها منية النفوس، ولكنها أخبرته بأنها ليست منية النفوس وإنما هى نفيسة الدر بنت الملك بحر شيرشاه. وكانت بلاد الملك تعانى من قلة المياه، فأجرى سيف له المياه، فسعد به الملك وقربه إليه. فاغتاظ وزير الملك ووشى بالملك سيف عنده، فحبسه الملك بعد أن جرده من سيفه ومن ذخائره. فلما شاء الملك أن يخرج السيف من غمده عجز، فاستدعى وزيره وطلب منه أن يأخذ السيف إلى خارج المدينة ويعالج إخراجه من غمده. فلما فعل الوزير ذلك هبطت عليه عاقصة وخطفت منه السيف وقتلته به، ثم حملت جثة الوزير وطرحتها أمام الملك بحر شيرشاه وأمرته أن يطلق سراح الملك سيف، وأن يرد إليه ذخائره، وإلا لقى حتفه مثل وزيره. وبهذا أطلق سراح الملك سيف، وجدد الملك سيف رجاءه وهو أن تقبل عاقصة الزواج من عيروض. وفى هذه المرة وافقت عاقصة على الزواج بشرط أن يتحرر عيروض من كونه خادما للوح، وأن يتوج ويصبح ملكا واستطاع الملك أن يحقق هذين الشرطين، فتزوجت عاقصة من عيروض وولدت منه أولادا أصبح كبيرهم وهو عفاشة الجان خادما للوح خلفا لأبيه.

ولم ينس الملك سيف هو وأولاده أن ينتقموا من سيف أرعد، فدارت الحرب بينهم، وقتل على إثرها الملك سيف أرعد. وعند ذلك نزح سيف مع أولاده إلى مدينة الدور، مدينة الملك سيف أرعد. وهناك طلب الملك سيف الحكيمين سقرديوس وسقرديون، فلما يجدهما وعلم عن طريق السحر أنهما قد هربا إلى مدينة الصوان ووادى عند حكيم كهين يسمى الجلنار، وله بنت تسمى الأفعى.

وقبل أن يرحل الملك سيف إليهما، شاء أن يتفرج على قصر الملك سيف أرعد. فلما دخل الحمام «وجد بداخله شيئا موضوعا مثل الثوب على الأرض وهو من الحرير الإبريسم، ولكنه يتقلب ذات اليمين وذات اليسار، فتعجب الملك سيف من ذلك، وتقدم إليه، ولم يعلم ما كتب له فى علم الغيب، وماهو قادم عليه. وإذا به أمسك الثوب، فخرج من دخان من تحت القبة حتى صار ماردا، وقبض على ملك سيف من حزامه بيده، وضرب القبة بيده اليمين فخرقها، وصعد منها وهو حامل الملك سيف إلى أن وصل إلى أعلى[1]» وافتقد دمر أباه فسأل عنه أحد الحكماء فقال له: اعلم أن أباك سار إلى مدينة النحاس وقد صلب على دولاب مصنوع له من الرصاص، فكلما دار الهواء لفه، وكلما نزل الندى هفه، وهو الآن فى أليم العذاب، وأشد الذل والعقاب ، وقد أخبرتك به وبسببه[2]».

فلما سأل دمر عن سبب ذلك، حكى له حكاية السحار المكار رومان الأزرق، الذى أشار على ولده السقراق، بخطف الملك سيف الذى أذل الأصنام، وأبطل عبادة زحل، فخطفه وصلبه على هذا الدولاب المذكور.

واستعان دمر بطبيعة الحال بعفاشة الجان، الذى أسرع وخلّص الملك سيف، ثم قال عفاشة الجان للملك سيف: «إنى سمعت ياملك أنك عملت لوالدى عيروض فرحا عظيما .. لما تزوج بأمى

(١) السيرة جـ ١٤ ص ١٩٦.
(٢) السيرة جـ ١٧ ص ٧٧.

عاقصة، وإنى أتمنى أن تعمل لى فرحا مثله .. لأن أريد أن أخطب دنهشه بنت الملك ديهشور، صاحب قلعة من قلاع قاف، لأنى مغرم بحبها[1]».

وكان عفاشة الجان قد خشى أن يلهيه الزواج عن إتمام مهمته. بوصفه خادما للملك سيف، كما أنه خشى أن يكون الملك سيف قد تعب من التجوال. بخاصة بعد أن فرغ من عملية جريان ماء النيل. ولهذا فقد قرر، بينه وبين نفسه، أن يدفعه إلى تحرير الأقاليم السبعة التى تقع بين بلاد الملك سيف أرعد وبين قلاع قاف، من عبادة الأصنام.

فلما قبض مسابق العيار، أحد خدام سيف، على الحكيمين سقرديوس وسقرديون. وأوصلهما عند الملك سيف، عمل عفاشة الجان على تهريبها إلى أول إقليم وهو وادى السبروت، فرحل الملك سيف إليهما، ونشر دين الإسلام فى هذا الوادى. ولما بحث عن الحكيمين وجدهما قد هربا مرة أخرى إلى مدينة الياقوت. وهكذا أخذ الملك سيف ينتقل وراءهما من إقليم إلى آخر، وعفاشة يساعده من ناحية على إبطال إرصاد هذه الأقاليم، ومن ناحية أخرى يعمل على تهريب الحكيمين إلى بلاد أخرى تعيش فى جهل عبادة زحل والأوثان.

وأخيرا عرف الملك سيف أن عفاشة يقف وراء سر هروب الحكيمين دائما أبدا، فقال له:

(١) السيرة جـ ١٧ ـ ص ٨٦.

«لأى شئ كلما نقبض على أعدائنا تطلقهم أنت من قبضتنا؟ فقال له عفاشة: ياملك الإسلام، هذا فيه فوائد كثيرة، لأنك فتحت سبعة أودية وصاروا على دين الإسلام، بعدما كانوا من الكفرة اللئام، وأنا دائما ماسك ذلك الخلاف حتى تفتح البلاد بالإسلام إلى حد سابع قلعة من قلاع قاف، وتخطب لى دنهشة من أبيها، حتى تزوجنى بها، وتعمل لى فرحا مثل فرح أبى عيروض[1]».

وبهذا فرغ الملك سيف من مهمته، وهى إخضاع ممالك الإنس والجن لدين الإسلام كما استطاع أن يكسر شوكة سيف أرعد ويخضع بلاده ـ أكبر معاقل عبادة الأوثان ـ وتصبح تحت سلطانه. كما استطاع أن يجرى ماء النيل الذى كان يستمتع به الملك سيف أرعد وحده، وبالمثل تلك الممالك الواقعة حول منبعه، فيجعله يسير فى الصحراء القفر فيروى أرض مصر فتخضر وتزدهر.

ولما فرغ الملك سيف من كل ذلك، استقر مع أولاده واتفقوا على حكم تلك البلاد، فجعل دمر يحكم فى الشام، كما جعل مصر يحكم فى مصر، وحكم هو فى حمراء اليمن.

* * *

ولعلنا ندرك، بعد أن عرضنا لسيرة سيف بن ذى يزن، كيف أن هذه السيرة، على خلاف السير الشعبية الأخرى تسبح فى جو من

(١) السيرة جـ٢٠ ص ٢٧٤.

الخيال الصرف، فما من حادثة فى السيرة نسجت عناصرها من حوادث تاريخية. ومن ثم فنحن نتساءل: هل تعد سيرة الملك سيف سيرة خرافية، أى أنها تنتمى إلى الأدب الخرافى بصفة عامة، أم أنها تعد صدى، على الرغم من جوها الأسطورى الصرف، لحوادث واقعية عاشها الشعب العربى فى حقبة من تاريخه؟ ولعل هذا يدفعنا إلى البحث عن الدافع الأول وراء رواية السيرة، وإلى الكشف عن الدور التاريخى الذى لعبته الشخصيات التاريخية فيها، وعلاقة بعضها ببعض.

إن الهدف الأساسى الذى كان الملك سيف يسعى إليه فى السيرة هو القضاء على الكفر فى عالم الجن وعالم الإنس والحصول فى نهاية المطاف على كتاب النيل حتى يجرى نهر النيل فى ربوع مصر فيحولها من أراض صحراوية إلى أرض خصبة خضراء. حتى إذا ما أتى زمن محمد عليه السلام، أصبحت العوالم كلها ممهدة لنشر دعوته. والحق أن الملك سيف فى السيرة قد نشر الإسلام بالفعل، حقا إنه لم يقم بنشر تعاليم الدين الإسلامى كما هى مفصلة فى القرآن والسنة، ولكنه اهتم بنشره من الناحية الكلية لا الجزئية، وربما كانت السيرة محقة فى عدم الدخول فى تفصيلات الدين الإسلامى، لأن حوادثها تجرى فى عهد ما قبل الإسلام، أى قبل ظهور محمد عليه السلام ونزول القرآن عليه. وأما الهدف الثانى الذى كان يسعى إليه الملك سيف بعد أن انتصر على الكفار فى عالم الإنس والجن، فهو تعمير البلاد: تعمير اليمن بعد أن خربها

سيف أرعد، وتعمير الشام وتزويدها بالمياه، ثم العمل على جريان النيل من منابعه فى أفريقية حتى يصب فى البحر مارا ببلاد مصر، وبهذا تحققت معجزات البطل سيف بن ذى يزن، وبهذا تنتهى السيرة.

هذا هو الشكل العام للسيرة أو الإطار الذى تتوزع بداخله حوادثها. ونحاول الآن أن نربط بين السيرة فى إطارها العام وما يحكيه التاريخ عن شخصية الملك سيف بن ذى يزن والدور الذى لعبته بلاده ـ أى بلاد اليمن ـ مع بلاد الحبشة التى يمثلها فى السيرة الملك سيف أرعد.

ينتسب الملك سيف إلى بنى حمير، أشهر شعب حكم اليمن بعد سبأ. ولقد أطلق العرب كلمة حمير على كل عصور اليمن، لأن عصر بنى حمير كان أقرب العصور إليهم، ومن ثم كانوا أعرف شعوب الجنوب إليهم[1]».

ومن المعروف أن الحضارة العربية القديمة تمركزت فى الجنوب، وأن اليمن كذلك كانت مطمع الدول الكبيرة فى ذلك الوقت، وهى بلاد الفرس والرومان والحبشة، بقصد الاستفادة من موقعها الاستراتيجى، واتخاذها موطنا لنشر الدينين السماويين: اليهودية والمسيحية، أما الدول التى لعبت فى تاريخ اليمن الدور الأكبر فهى

(١) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب.. دار الفكر العربى ـ القاهرة، ص ١٠.

الحبشة وقد بدأت غزواتها لليمن فيما يقول المؤرخون في القرن الأول قبل الميلاد.

وكانت اليمن ملجأ لليهود الذين فروا من اضطهاد الدولة الرومانية، وحيث أن الفرس كانوا أعداء للروم، فقد ناصر الفرس اليهود الهاربين إلى اليمن من ظلم الدول الرومانية. وكان الفرس من ناحية أخرى أصحاب دعاية قوية في حمير، ولهذا فقد وجد اليهود في بلاد اليمن موطنا لنشر دينهم، حتى يقال إن بعض ملوك حمير قد تهود وعلى رأسهم تبان أسعد أباكرب. ولما كان الدين اليهودى قد انتشر في بلاد اليمن، ولما كان الفرس قد ناصروا اليهود بها، فقد أصبح الفرس يثقون في قوة مناوئة للدولة الرومانية صاحبة الدين المسيحي، وحليفتها الكبرى وهي الحبشة. وبهذا برز النزاع بين الفرس والروم من جهة، وبين اليهود والنصارى من جهة أخرى، وكانت اليمن مسرحا لهذا النزاع، فلما انتشرت اليهودية في بلاد اليمن، أسرع الأحباش يناصرهم الرومانيون، في القضاء على اليهودية وتدعيم المسيحية بها. كما أسرع الفرس بدورهم في خلق شعور النفور في نفوس اليمنيين من الأحباش المستعمرين.

على أن نفوذ الحبشة والرومان تغلب في النهاية، وهاجر إلى اليمن كثير من الأحباش الذين شاءوا، وعلى رأسهم أبرهة الحبشى، في القرن السادس الهجرى، أن يستقلوا عن الحبشة. ولكن الحبشة كانت تصر بين الحين والآخر على إخضاعهم لنفوذها. وبهذا

أصبحت العلاقة بين الحبشة واليمن علاقة سياسية فحسب، بعد أن كانت دينية فى بداية أمرها.

ولما رأت حمير أن «ملك الحبشة قد دام عليهم وتوارثوه فيهم، اجتمع ساداتهم إلى سيف بن ذى يزن، وهو من أولاد ذى نواس الذى غلب الحبشة على اليمن فى أيام ملكه، بذلوا جهدهم أن يجمعوا له نفقة نفيسة ليسير إلى بعض الملوك فيستنجده، ففعل ذلك وسار حتى وافى القسطنطينية إلى قصر ملك الروم فاستنجده، فقال له قيصر: إن الجيش على دينى، وماكنت لأعينك عليهم، وأمر له بعشرة آلاف درهم. فأبى أن يقبلها وقال: إذا لم تنصرنى فلا حاجة بى إلى مالك، وانصرف إلى كسرى واستنجده، فقال له كسرى: بعدت بلادك عن بلادنا مع قلة خيرها، إنما فيها الشاء والبعير وما لا حاجة لى فيه. فقال له سيف: لا تزهدن أيها الملك فى بلادى فإنها فرصة العرب، وأرض التبابعة الذين ملكوا أقطار أقاليم الأرض، ودان لهم أهل الشرق والغرب. قال كسرى: ما كنت لأغرر بجندى فيما لاينفعنى. وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما انتهى إلى باب القصر نثرها فى الناس حتى أتى عليها. فبلغ ذلك كسرى، فغضب وقال له: مالذى حملك على استخفافك بصلتى حتى نثرتها فى الناس؟ قال: ما أصنع بالمال وتراب أرضى ذهب وفضه. ثم خنقته العبرة. فرقّ له كسرى ووعده بالانتصار له. فأثار عليه بعض وزرائه فقال: إن فى سجونك بشرا كثيرا ممن استوجب القتل. فمر بإطلاقهم، وقوهم بالمال والكراع والسلاح، ووجههم مع هذا

العربى، فإن ظفروا كان ذلك زيادة فى ملكك، وإن قتلوا كان ذلك جزاء عن جرائمهم. فأعجب كسرى هذا الرأى وعمل به، وقدّم عليهم وهرز بن كامخان، وكان من فرسان العجم وأهل البيوتات، وقد أناف على المائة من السنين وكان عدتهم ثلاثة آلاف وستمائة رجل، فركبوا البحر فى سبع سفن، وأرسل سيف إلى اليمن ومخاليفها فأتوه من أقاصى اليمن وأدانيها، حتى صاروا فى عشرين ألفا وتجهز إليهم مسروق[1]».

فلما التقيا قال وهرز لسيف: أرنى ملكهم! فأراه إياه وهو على قيل، وعلى رأسه التاج وفيه ياقوتة حمراء مدلاة على جبينه، فلبث ساعة ثم تحول إلى فرس، ثم تحول إلى بغلة، فقال وهرز: ذل الأسود وباد ملكه، وأنا أرميه فتأمل الرمية، فإن رأيت أصحابه تصدعوا عنه وحاصوا يمينا وشمالا فاعلم أنى قتلته. وإن لم يتحركوا من منازلهم فلم أصنع شيئا، ورماه، ففلق السهم الياقوتة نصفين، وخرج من مؤخر رأس مسروق. واضطربت الحبشة وماجوا. وحمل عليهم ومن معه والعرب فولوا منهزمين، ودخلوا صنعاء وقتلوا كل أسود يوجد فى اليمن. وكتب وهرز إلى كسرى بالفتح، فكتب إليه كسرى أن

(١) مسروق هو بن أبرهة الأشرم، ويحكى الطبرى أن ذا يزن كان أحد أشراف اليمن فى عهد أبرهة الأشرم، وكان ولد له غلام من ريحانه ابنة ذى جدن سماه معد يكرب، وكانت ريحانة ذات الجمال فانتزعها الأشرم منه وتزوجها وولدت له غلاما سماه مسروقا. ونشأ معد يكرب بن ذى يزن مع أمه ريحانة فى حجر أبرهة. وعرف معد يكرب بعد وقت أنه ليس أبنا لأبرهة الذى كان قد توفى هو وإبنه. وكان هذا سببا فى خروجه من بلاده ليستنجد بالروم والفرس كما ذكرنا. (الطبرى جـ ١ ص ٩٥٣).

يسأل عن سيف بن ذى يزن، فإن كان من أبناء الملوك فأقره على ملكه وانصرف عنه، وإن لم يكن من أبنائهم فاضرب عنقه وأقم فى الأرض متوليا لهم. قال: فسلّم وهرز إليه ملكه، وخلف من كان معه من العجم بصنعاء، وانصرف إلى كسرى. وملك سيف اليمن لكسرى، وتداولتها الولاة بعده من قبل كسرى وكان ملك الحبشة على اليمن اثنتين وسبعين سنة، ثم انتزع عنهم[1]».

«فلما انصرف وهرز إلى كسرى، وملك سيف على اليمن، عدا على الحبشة فجعل يقتلها ويبقر النساء عما فى بطونها، حتى إذا أفناها إلا بقايا ذليلة قليلة اتخذهم خولا، واتخذ منهم جمازين يسعون بين يديه بحرابهم، فمكث بذلك وقتا قصيرا». «ثم إنه خرج يوما والحبشة تسعى بين يديه بحرابهم حتى إذا كان فى وسط منهم، وجنوه بالحراب حتى قتلوه ووثب منهم رجل من الحبشة فقتل باليمن وأوعث وأفسد. فلما بلغ ذلك كسرى، بعث إليهم وهرز فى أربعة آلاف من الفرس وأمره ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من أسود إلا قتله، فأقبل وهرز حتى دخل اليمن ففعل ذلك لم يترك بها حبشيا إلا قتله[2]».

وواضح مما سبق أن الملك سيف قد نشأ فى ظل ظروف سياسية دفعته إلى بغض الحبشة، وإلى الرغبة الملحة فى القضاء على

(١) النويرى: نهاية الأرب ط١ وزارة الثقافة جـ١٥ ص ٣٠٩ ـ ٣١١.
(٢) النويرى جـ١ ص ٩٥٧ ـ ٩٥٨.

سلطانهم. ولم يكن الباعث على ذلك هو الدين وإنما الرغبة فى تخلص اليمن من سلطة الأحباش.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن الشخصية التاريخية الرئيسية الثانية فى السيرة فإننا نجد شخصية سيف أرعد. والفرق الزمنى بعيد بين سيف بن ذى يزن وسيف أرعد.

فسيف بن ذى يزن عاش فى القرن السادس الميلادى، أما سيف أرعد فقد عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى فيما بين ١٣٤٤، ١٣٧٣م. ولم تكن علاقة الحبشة بالعالم الخارجى متركزة فى علاقتها باليمن، وإنما تركزت فى علاقتها بمصر البلد الإسلامى.. أى أن النزاع فى تلك الآونة تركز بين الإسلام والمسيحية. وأما السبب فى تلك الثورة الدينية فهو ما خلفته الحروب الصليبية فى البلاد الإسلامية والمسيحية من رواسب نفسية. فقد أرادت الحبشة أن تظهر «أمام العالم المسيحى بأنها مركز الإمبراطورية المسيحية التى سيلتف حولها المسيحيون وسيتحقق على يدى حاكمها القسيس يوحنا [1] آمالهم وأحلامهم. ووجدنا الحبشة تتشبع بفكرة الصليبيين وتتحين الفرص للاشتراك الفعلى فى محاربة المسلمين، ولكن بعد الشقة حال بينها وبين تحقيق هذه الأمنية، فظلت هذه الرغبة مكبوتة فى نفوسهم يغتنمون لها الفرص للتعبير عنها فى مناسبات كثيرة». [2] فمن ذلك ما بلغ عمد صيون (١٣١٤، ١٣٤٤م) من

(١) هى شخصية وهمية ألفت حولها الأساطير.

(٢) عبد المجيد عابدين ـ بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربى، ص ١٧١.

أن المماليك يسيئون معاملة الأقباط فى مصر، فأرسل إلى السلطان المملوكى فى مصر يتهدده بأنه إذا لم يعامل النصارى بالحسنى فسوف يسئ معاملة المسلمين فى بلاده، كما هدده بأنه سيحول بين مياه النيل وبين بلاده، لأن منبع النيل فى الحبشة، وبيدها أن توقف جريانه.

ومن ذلك ماحدث فى عهد سيف أرعد حين طلب سلطان مصر من بطريق الإسكندرية زيادة الضرائب المقررة على المسيحيين، «فرفض البطريق، فزج به فى السجن، فلما سمع بذلك سيف أرعد قبض على جميع التجار المصريين فى مملكته، وبعث بفرسانه لطرد القوافل الآتية من القاهرة إلى خارج الحدود الحبشية»[1] «كذلك قام سيف أرعد بنصيب فى محاربة ملوك الطراز الإسلامى».[2] ومازال يحاربهم سيف أرعد حتى مات عام ١٣٧٤م.

وهكذا نرى أن كلتا الشخصيتين، أعنى شخصية سيف بن ذى يزن وشخصية سيف أرعد، قد قامت بدور بارز فى تاريخ بلادها. فسيف بن ذى يزن تعصب لبلاده ضد المستعمرين الأحباش، وسيف أرعد تعصب لدينه وبلاده بوصفها ممثلة للزعامة المسيحية.

والآن يتبادر إلى الذهن سؤالان توضح الإجابة عنهما الظروف الاجتماعية والنفسية التى نشأت فيها السيرة. وهما أولا، لماذا ربط الراوى الأول للسيرة بين شخصية سيف بن ذى يزن وشخصية

(١) بين الحبشة والعرب ص ١٧٧.
(٢) المرجع السابق ص ١٧٨.

سيف أرعد، مع بعد الشقة الزمنية بينهما؟ وثانيا، لماذا أغفل الخلافات الدينية بين الأديان السماوية كما هو واضح فى علاقة الحبشة باليمن من ناحية، وعلاقتها بمصر من ناحية أخرى؟

من المؤكد أن السيرة قد بدأت روايتها بعد وفاة سيف أرعد أو فى زمنه على الأقل، أى أنها نشأت فى ظل الصراع الرهيب بين الإسلام والمسيحية فى عصر ما بعد الحروب الصليبية. وهذا مبرر كاف لجعل شخصية سيف أرعد شخصية رئيسية فى السيرة. فلما أراد الراوى أن يختار شخصية عربية مناوئة لشخصية سيف أرعد، اختار شخصية سيف بن ذى يزن الحميرى، وجعل منه مبشرا للدين الإسلامى، بل ناشرا له فى عالم الإنس والجن.

وهنا ينشأ سؤال آخر، وهو: لماذا لم يختر الراوى شخصية عربية إسلامية معاصرة للملك سيف أرعد؟ والجواب عن ذلك واضح، وهو أن المماليك والسلاطين الذين حكموا مصر بعد ذلك لم يكونوا يمثلون الأصل العربى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فربما لم يلتمس الشعب العربى البطولة النادرة فى شخصيات عصره، فرجع بذاكرته إلى ما ترسب فى نفسه من حوادث تاريخية، واختار شخصية سيف بن ذى يزن، وربما ذكّره اسم سيف أرعد باسم الملك الحميرى سيف بن ذى يزن، ووجد أن التقابل بين الاسمين يضفى على السيرة نوعا من الطرافة، فكلاهما سيف، ولكن كلا منهما يقطع ويصيب فى ناحية، هذا فضلا عن الدور التاريخى الذى لعبه سيف بن ذى يزن.

كل هذه افتراضات ـ ولا مفر من الافتراض هنا ـ تفسر لنا الالتقاء المتعمد بين شخصيتى سيف بن ذى يزن وسيف أرعد فى سيرة الملك سيف. وننتقل بعد ذلك إلى سبب تجاهل الراوى لذكر الخلاف الدينى بين الإسلام والمسيحية.

فهل يرجع ذلك إلى الرغبة المتعمدة فى عدة إثارة الأحقاد والضغائن بين المسلمين والمسيحيين، وبذلك ألقى الراوى القناع على العلاقة بينهما، وجعله يأخذ شكل صراع بين الإسلام والكفر؟

ربما كان هذا الرأى مستبعدا بعض الشئ، حيث أننا نجد السيرة العربية الأخرى التى كانت ذائعة الصيت فى كل الوقت، لم تكن تخفى الصراع بين الإسلام والمسيحية، ومثال ذلك سيرة الأميرة ذات الهمة التى حكت فى صراحة عن الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، وكذلك سيرة الظاهر بيبرس، التى حكت عن العلاقة الحربية بين المسلمين والصليبيين.

ترى هل يرجع ذلك إلى ماروى عن مفهوم الديانة المسيحية لدى الأحباش آنذاك من أنهم «لم يفهموا العقائد السماوية التى اعتنقوها على وجهها الصحيح، وإنما أباحوا لأنفسهم أن يمزجوها بخرافاتهم ومعتقداتهم القديمة»[1].

من المؤكد أن أخبارا عن معتقدات الحبشة، بل من خرافاتهم وحكاياتهم، كانت تتناقل بين المسلمين، حيث أن الصلة، سلمية

(١) بين الحبشة والعرب: ص ١٤٧.

كانت أم حربية، كانت قوية بين العرب المسلمين والأحباش. فمن أساطير الحبشة التى لقيت رواجا كبيرا، أسطورة القسيس يوحنا، التى كانت تبشر بتأسيس إمبراطورية مسيحية تحت زعامته» وهى قصة خيالية حاكها المسيحيون ليمثلوا فيها أمانيهم وأحلامهم. هذه الإمبراطورية يسكنها أشخاص خرافيون، ورجال عيونهم فى صدورهم، وهى مهد بعض الحيوانات والزواحف المخيفة المفزعة، التى لاتعيش إلا على لحوم الآدميين، والمخلوقات العجيبة التى تتركب أجسامهم من رؤوس الطير ذات الأجنحة وأجسام الحيوان ومخالب الوحوش، ولها ذيول من الأفاعى الحية، يحكم هذه الإمبراطورية حاكم مسيحى يعرف باسم القسيس يوحنا[1]».

وإذا كانت هذه الأسطورة التى يقال إنها انتشرت انتشارا كبيرا، قد وصلت إلى العرب، فليس غريبا أن ينسج الرواة على منوالها سيرة الملك سيف، الذى بشرّ بالإسلام فى عالم شبيه بذلك الذى بشرّ فيه القسيس يوحنا بتعاليم المسيحية.

وعلى هذا فقد استجابت السيرة فى شكلها العام لكثير من رغبات لشعب العربى آنذاك، ومن الراجح أن يكون هذا الشعب هو شعب مصر، فقد عبّرت أولا عن مفهوم العقيدة الدينية لدى الأحباش من وجهة نظر الشعب العربى، وحرصت على أن تصور فى مقابل ذلك روح الإسلام الذى لايقبل الشك، وحيث أن شخصية الملك سيف بن ذى يزن قد لعبت دورا خطيرا فى محاربة الحبشة، فقد نسبت السيرة إليه مهمة نشر الدين الاسلامى، ومهمة

(١) المرجع السابق ص ١٦٧.

العمل على جريان ماء النيل فى بلاد مصر، عن طريق حصوله على كتاب النيل السحرى. وبذلك يرصد نهر النيل رصدا سحريا فلا تجرى بعد ذلك مزاعم الحبشة كما يرويها التاريخ، من أنها ستعمل على منع نهر النيل من جريانه فى أرض مصر.

وبعد أن حاولنا تحليل السيرة من ناحية الشكل، ننتقل إلى تحليلها من ناحية تركيبها البنائى.

وهنا نقسّم شخوص السيرة وفقا لموضوعاتها الرئيسية إلى شخوص تدفع الحياة إلى النمو والتطور لصالح الإنسان والحياة، وشخوص أخرى معارضة لتطور الحياة. ونماذج الشخوص الأولى والثانية يعيش بعضها فى عالم الإنس ويعيش بعضها الآخر فى العالم الخفى، أى أن عناصر الكون كله، الظاهرة منها والخفية، قد تسهم فى تطور الحياة، وقد تكون معوقة لهذا التطور، ولا مفر للإنسان من أن يتعاون مع الوجود الكلى، لأنه لا يستطيع وحده أن يحقق أى شئ. وقد تكون أشكال العالم الخفى شخوصا تشبه شخوص العالم المرئى، وقد تكون مجرد أشياء سحرية ذات قدرة خارقة للعادة.

فالملك ذو يزن ويثرب والملك سيف بن ذى يزن، شخوص تدفع الحياة إلى التطور وبدونها تظل الحياة متوقفة عن الحركة، والشيخ جياد وأخميم الطالب وبرنوخ الساحر والشيخ أبو النور شخوص قد اتضحت لها الرؤية فأصبحت تبصر الخير والشر وتميز بينهما، ولكنها لا تستطيع أن تصنع صنيع الشخوص الأولى، لأنها ليست مسؤولة

عن تطور الحياة ودفعها إلى الأمام. ومع ذلك فهى راصدة لها، تظهر لها فى الوقت المناسب لتؤدى مهمتها، وهى كشف النقاب عن مجاهل الحياة أمام البطل. ثم هناك أشكال العالم الخفى التى لا تقدم نفسها للبطل تلقائيا وإنما يتحتم على البطل أن يسعى إليها ويبحث عنها حتى يجدها. ومثل ذلك كتاب النيل، والقلنسوة السحرية، واللوح المطلسم، وسيف آصف بن برخيا، والخرزة ذات الأوجه السبعة، والحصان السحرى.

أما الشخوص المعارضة لتطور الحياة فهى قمرية، وسيف أرعد، وسقرديون وسقرديوس والكهين الشعشعان، والملك العملاق، وكل هؤلاء يعيشون فى عالم الإنس. أما التنين والبرق اللامع والرهق الأسود فهى أشكال تعاونها فى العالم غير المرئى.

هناك شخوص لا تنتمى إلى المجموعة الأولى كما أنها لا تنتمى إلى المجموعة الثانية.

فهى ليست شريرة ولكنها فى الوقت نفسه لا تمثل القوى الدافعة للحياة. وسبب ذلك أنها تنظر إلى الحياة من جانب واحد، كما أنها تحن إلى الشىء القديم الجامد الذى يجذبها إليه. ومن هذه الشخوص طامة، ومنية النفوس وناهد.

وفى وسط هذا الكون المهول عاش الملك سيف بن ذى يزن، وقد بدأ يصطدم بالحياة قبل أن يعيشها، وقبل أن يعرف هدفه. فعاش فى معركة مع القوى الشريرة التى تتمثل فى بداية الأمر فى أمه قمرية، ولكن سرعان ما ظهرت القوى الخيرة المناوئة لها، التى تتمثل

فى الغزالة المسحورة وابنتها عاقصة. وهكذا بدأ سيف حياته بين صراع القوتين وهو يحس بهدف غامض يدفعه إلى الحركة الدائبة، حتى اتضح له الهدف حينما قابله الشيخ جبار، والذى يبصر ولا يملك أن يصنع، وقال له:

«أهلا وسهلا بملك بلاد اليمن، وغيرها من الأمطار والدمن، الحكام على هذه الأقطار، وسائق النيل من بلاد الحبش إلى أراضى الأمصار، مانع الظلم والفتن، وحاكم صنعاء وعدن، وصحارى الحبش وما يتبعها من القرى والمدن، الملك سيف بن ذى يزن».

وتعجب الملك سيف من هذا النداء، إذكان يعرف حتى هذه اللحظة أن اسمه وحش الفلاة، وأنه ابن الملك أفراح. أما وقد عرف الآن حقيقة نسبه كما عرف مهام أموره، فكان عليه إذن أن يتحرك، لا بين مجاهل الحياة، ولكن بين حقائق واضحة، ليصل إلى هدف محدد.

إن الملك سيف بن الملك ذى يزن العربى الأصيل هو الذى يستطيع وحده ـ دون أى إنسان آخر ـ أن يحقق مطامع شعبه. وبهذا تكشف السيرة منذ بدايتها عن أهم ملامح البطل الشعبى، إنه البطل الذى يتصل بجذوره اتصالا مباشرا، وهو الذى يتصل فى الوقت نفسه بالوجود الكلى اتصالا وثيقا، الوجود المرئى وغير المرئى من ناحية، والوجود بعناصره الخيرة والشريرة من ناحية أخرى، إنه البطل الذى يستطيع أن يبحث عن كنوز شعبه الخفية ويحرص عليها

ويستفيد من قوتها السحرية الخارقة. فإذا تهاون فى الاحتفاظ بها، فقد يحتفظ بها عدوه وهى فى الوقت نفسه تؤدى دورها لأنها لا تملك أن ترفض طلب من يحركها ومن يمتلكها. فحينما كان الملك سيف ينسى ـ فى زحمة الحياة ـ الحرص على الاحتفاظ بلوح عيروض، كان يقع هذا اللوح فى حوزة أمه قمرية. ولم يكن عيروض يملك أن يرفض طلب قمرية التى استطاعت أن تستحوذ عليه، كما عرفت كيف تستخدمه. فلما ذكر سيف عيروض بأنه خادم له أجابه عيروض «مابقيت تكلمنى ولا كلمة واحدة، فإنك فرطت فى لوحى، ولا عرفت قيمتى، وضيعتنى، إنك أنت ظالم لنفسك، حيث أنك أعطيت اللوح لأمك، فقاس بنفسك طول هماك، ولا تطل معى كلاما».

وكما كانت القوى الشريرة تشكل عقبة للملك سيف، فإن شخوص المجموعة الثالثة كانت تشكل له عقبه أخرى، فهى لم تكن من طبيعته فتتجاوب معه تماما، كما أنها لم تكن ذات طبيعة شريرة فيحاربها. وقد كان سيف يتصرف مع هذه الشخوص إما بإهمالها أو الحرص على تبصيرها بهدفه وبالحياة التى يسعى إليها. فقد كانت طامة تسعى إلى هدف واحد فحسب، هو الزواج من الملك سيف. فلما رأت سيفا منشغلا عنها بأموره خطفت منه القلنسوة السحرية على سبيل التهديد، فما كان من الملك سيف إلا أن أهملها وقال لها: ياسيدتى خذيها بارك الله لك فيها، وياليتكم ماعاونتمونى ولا بالخير جاملتمونى، وبعدما انصلحت أحوالى بدلتم المعروف وفعلتم

بدله المتلوف، وأنا لا أتوكل على القلنسوة، لأن الذى يساعدنى هو الله فالق الحب والنوى». أما منية النفوس فقد جذبتها حياتها الأولى إليها، فارتدت لباسها الريشى وطارت إلى بلادها. ورحل الملك سيف وراءها ووجدها تعانى صنوف الذل. وكان هذا بمثابة التكفير عن ذنبها، فرجعت مرة أخرى لتعيش مع الملك سيف.

وأما ناهد فقد كانت مثل طامة، تسعى لهدف واحد هو زواج سيف منها. ولكن كان على الملك سيف أن يقوم بمغامراته، فتركها ورحل، فدعت عليه بأن يقاسى الأهوال ويعود إليها عريان. وسمع سيف الدعاء فرد عليها قائلا: «وتكونى عمياء وداوؤك على يدى». ثم تحقق الدعاءان. فقاسى سيف أهوال البحر، ثم التقى بناهد مصادفة وكانت قد أصيبت بالعمى، فعالجها بالحيوان السرطانى الذى كان قد حصل عليه فى مغامراته.

وهكذا نرى أن تحليل هذا البناء المركب يطلعنا على مشكلات كلية، تتلخص فى نظرة الإنسان إلى الكون الذى يعيش فيه. ومن ثم فهو يرسم صورة للإنسان وهو يتعامل ويتفاعل مع عناصر هذا الكون. ولا عجب بعد ذلك أن عبرّت سيرة سيف بن ذى يزن عن أفكارها فى إطار أسطورى. ذلك أنها ـ على خلاف السير الأخرى ـ لا تهدف إلى تصوير الواقع الذى عاشه الشعب العربى فى حقبة من تاريخه فحسب، وإنما تهدف كذلك إلى الكشف عن تصور الشعب للوجود الكلى الذى يعيشه. وحيث أن هذا الوجود الكلى يتمثل منذ

أقدم العصور حتى الآن فى قوى مرئية وأخرى خفية، فقد تجول سيف بن ذى يزن فى العالمين، الخفى والمرئى، بقصد تحقيق التآلف الكامل بين عناصر الوجود. وقد حققت السيرة هذا التآلف بعد أن قضى سيف على العناصر المتمردة المتنافرة مع الحياة، وأصبحت العناصر كلها تعيش بعد ذلك من أجل هدف واحد، بعد أن أصبحت تؤمن بعقيدة واحدة.

وربما كانت هناك أنماط أدبية معينة شجعت القاص العربى على أن ينسج سيرته هذا النسيج الأسطورى، وهى الذى كان يخشى التعبير عن تصوره للعوالم السماوية، وبخاصة بعد مجئ الإسلام، ومن ذلك ماروى عن النبى سليمان وعن كنوزه، وعن تسلطه على عالم الجن، وقد استغل القاص ذلك كل الاستغلال، فجعل سيفا يبحث عن كنوز الملك سليمان، وجعل عاقصة تطلب بدلة بلقيس مهرا لزوجها من عيروض، بل جعل الرهق الأسود من الجن الذين عصوا النبى سليمان، ثم أن سيف آصف بن برخيا الذى كان الملك سيف قطع به رقاب الإنس والجن، ويختبر به المؤمن الصادق والمسلم المنافق، كان ملكا لأحد وزراء النبى سليمان.

ومن ذلك كذلك تلك الروايات الشعبية التى حكت عن قصة الإسراء والمعراج. ومما لاشك فيه أن كلا النمطين يرتكز على أصل دينى، وقد وجد القاص الشعبى ذلك فرصة سانحة لأن يدخل الإنسان فى معركة مع عالم الجن، كما وجدها فرصة سانحة لأن

يتخذ من عناصر قصة الإسراء موضوعات تدخل فى تكوين السيرة الأساسى.

فقد ركب الملك سيف الهايشة، هى حيوان أشبه بالفرس، وطارت به إلى أجواء العالم الخفى فى أقل من لمح البصر. وربما كان هذا صدى لموضوع البراق الذى حمل النبى صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس. وقد لعب الخيال الشعبى دوره فى تصوير البراق فى قصة الإسراء والمعراج الشعبية على نحو جعل هذه الصورة تعيش فى خيال الشعب حتى اليوم.

ولنقارن بين نص من قصة الإسراء وآخر من سيرة سيف لنرى إلى أى حد قد تأثرت السيرة بقصة الإسراء الشعبية .. تقول قصة[1] الإسراء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم «ونظرت إلى ملك يداه تحت العرش ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة السفلى، وله ريش أشد بياضا من الثلج، وله جناحان إذا نشرت جاوزت المشرق والمغرب. فقلت يا أخى جبريل من هذا، قال ملك موكل اسمه ميكائيل، إذا كان الثلث الأول من الليل ينادى أين الذاكرون الله تعالى، وإذا كان الثلث الأوسط نادى أين المستغفرون الله، وإذا كان الثلث الأخير نادى ياغافلين اذكروا الله، ثم يرفع رأسه ويقول: سبحان الملك القدوس، سبحان الملك الحى القيوم، سبحان ذى العزة

(١) مخطوط ألوارد بجامعة توبنجن بألمانيا الغربية تحت رقم Patterm 1 655 ص ٤٢ ظ

والجبروت، سبحان من لا يخلو عن علمه مكان، سبحان من لا يشغله شأن عن شأن، سبحان ذى الجلال والإكرام.

فإذا سمعت ديوك الأرض صراخه خفقت بأجنحتها ونادت كما ينادى».

وفى سيرة سيف، حملت الجن الملك سيفا إلى مكان كنوز النبى سليمان. وفى أثناء التجوال وجد سيف نفسه فوق جبل شاهق، فسأل سيف الجنى أرميش وقال: لكن ياأخى من يحكم على هذا المكان، فقال يحكم عليه أستاذك، وهو الخضر عليه السلام.فقال له ياسيدى فرجنى على بعض الأماكن، فقال له مرحبا بك، ووضع يده ومشيا سبع خطوات ووقف، فهبت عليهما روائح زكية، ونظر الملك سيف فرأى قصروا عالية وفيها قناديل معلقة، وهى قناديل من الجوهر تضئ آناء الليل وأطراف النهار، ولم يكن فيها لا دهان ولا نـار ـ فلما نظر الملك سيف تعجب وقال لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله. سبحانه خلق الخلق وأحصاها، وبسط الأرض ودحاها، ورفع السماء وأعلاها، جل جلاله وعز جاهه، ثم إن الملك سيفا التفت إلى ذلك الرجل وقال له ياسيدى وأنتم كيف تصلون إلى هذه الأماكن وأنتم فى مساكن بعيدة عنها، بأى شئ تعرفون الأوقات حتى تصلّوا فيها؟

فقال: اعلم ياملك أن فى هذا الجبل ملكا من عند الله تعالى، إذا جاء الوقت وقف على رأس الجبل وينادى الله أكبر، ياعباد الله

اذكروا الله تعالى، فإذا قال ذلك تجاوبه الملائكة والوحوش والأشجار وكل ما كان من الحيوان والهوام، وبعد ذلك تصيح الطيور التى على الجبل والأشجرار والأنهار، فنعلم أن الوقت جاء أوانه فنصلى»[1].

وفى نص آخر من السيرة يقول الراوى عن الملك سيف بن ذى يزن: «ولم يزل فى منامه حتى مضى ثلثا الليل، ثم أفاق من منامه وتنبه لنفسه وإذا به يجد نفسه سائرا بين السماء والأرض، والريح يزفه ويزمر فى آذانه، فلما عاين ذلك تعجب غاية العجب، وقال لحامله أيها العون الشديد والشيطان المريد من أنت ومن أرسلك حتى خطفتنى.. وما الذى تريده منى»[2].

فتأثير قصة الإسراء الشعبية واضح ولا شك فى تصورات القاص الشعبى. وقد أتاحت قصة الإسراء فرصة للخيال الشعبى لأن يعبّر من خلالها عما يساوره من أفكار إزاء العالم الآخر، ولهذا فقد وردت لهذه القصة عدة روايات مايزال كثير منها مخطوطا لم يدرس بعد.

ولعل هذا يدفعنا إلى السؤال عما إذا كانت سيرة سيف بن ذى يزن تعد حكاية خرافية أم حكاية شعبية. وقد سبق أن ميزنا بين النوعين فى كتابنا عن «أشكال التعبير فى الأدب الشعبى»، وفى بحثنا عن سيرة الأميرة ذات الهمة، فليس هناك داع إذن لأن نعيد ماسبق أن ذكرناه. ولكننا نشير إلى أن أهم مايميز الحكاية الخرافية

(١) السيرة جـ ٢ ص ١٧١.
(٢) السيرة جـ ٤ ص ٢٤٠.

عن الحكاية الشعبية هو صورة البطل فيهما ومدى ارتكاز كل منهما على الحوادث التاريخية التى يعيشها الشعب. فالبطل فى الحكاية الخرافية لا يتسم بملامح محددة، وإنما هو نموذج. أما فى الحكاية الشعبية فالبطل واقعى، عاش ذات يوم فى التاريخ، ولهذا فهو يتسم بملامح محددة. وبالمثل فإن الحكاية الخرافية لا ترتكز على حوادث تاريخية عاشها الشعب، أما الحكاية الشعبية فأساسها الواقع التاريخى والحوادث التاريخية. وحيث أن البطل فى سيرة الملك سيف ذو ملامح مميزة، لأنه بطل تاريخى، وحيث أنه يرتكز على حوادث تاريخية كما سبق أن ذكرنا، فهى إذن تعد حكاية شعبية، على الرغم من تصوير حوادثها فى إطار أسطورى. مبعثه التأثر بجو ألف ليلة وليلة من ناحية وبجو الأساطير والخرافة السائدة آنذاك من ناحية أخرى.

وبقى أن نشير إلى موضوعات السيرة التى تكوّن محتواها، وتنقسم هذه الموضوعات إلى معتقدات شعبية وأخبار متوارثة وموضوعات خرافية يبدو أثر ألف ليلة وليلة فيها واضحا، ثم إلى موضوعات نفسية مبعثها اللاشعور الجمعى.

والمعتقدات الشعبية التى ماتزال تعيش فى ضمير شعبنا حتى اليوم، واضحة فى السيرة، ومن أهمها اتخاذ الرمل وسيلة للتنبؤ بالغيب، وروح الميت التى تظهر فى شكل طائر، والأماكن المرصودة التى لا يفك عنها الرصد سوى شخص معين يتلو كلمات محددة، والاعتقاد فى أن المرض روح شرير يستكن داخل جسم الإنسان.

وأما الأخبار المتوارثة فتتمثل فى تلك الروايات التى رواها الشعب حول بعض الشخصيات الدينية، مثل النبى سليمان وبلقيس والخضر عليه السلام، وقد سبق أن أشرنا إلى أثر تلك الروايات فى بعض حوادث السيرة. ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن مفهوم الدين لدى الشعب، كيف أنه لا ينفصل عن السحر، ولهذا فإن ما يميز الكفار فى السيرة عن المسلمين هو أن الكفار يعبدون النار، أما المسلمون فهم يعبدون الله الذى لا شريك له، وخلاف ذلك فإن كلا الطرفين يستخدم صنوفا من السحر. لكن مايميز استخدام كل من الطرفين لهذا السحر هو أن ممارسة المسلمين للسحر مصحوبة بذكر الله، أى أن السحر لا تتضح قوته إلا بقدرة الله عز وجل. فقد أخذت الحكيمة عاقلة ورقة وكتبت عليها وعزّمت ورفعت وجهها إلى السماء وقالت: «اللهم ياعظيم العظماء، يامن علّم أدم الأسماء، إلهى أسألك بقدرتك ياقدير[1]»، وإذا بالورقة تفعلها السحرى، ويتحقق ماكتبته عاقلة عليها.

وأثر ألف ليلة وليلة واضح فى السيرة، فاللوح الذى «يمعك» فيحضر خادمه، ورحلات سيف فى الجرزة السبع، والخرزة السحرية ذات الأوجه السبعة، كل هذه موضوعات تكثر فى ألف ليلة وليلة، واستغلت فى السيرة أحسن استغلال.

فإذا انتقلنا إلى الموضوعات النفسية فإننا نجدها وفيرة فى السيرة،

(١) السيرة جـ ١٢ ص ١٤٩.

ولا تنفرد سيرة سيف بن ذى يزن بذلك، وإنما تشاركها فى ذلك كل أشكال التعبير الشعبى، على نحو جعل المنهج النفسى فى دراسة الأدب الشعبى يسود حتى الآن. وتتضح المشكلات النفسية الجمعية فى السيرة منذ بدايتها، فقد اختفى الأب ذو يزن من حياة ابنه سيف قبل ولادته، ووقع الابن بعد ذلك تحت سيطرة أمه. التى أبعدته عنها، ثم ظلت تحاربه وتوقعه فى المهالك، حتى قتلت الأم واختفت من حياة الإبن كذلك. وكل هذا يعبرّ عن المشكلات النفسية التى يعيشها الأبن منذ ولادته حتى يصل إلى مرحلة النضج والاستقلال. وكل ابن يعيش تحت سيطرة أمه فى المرحلة الأولى من حياته. ويفسر هذا اختفاء الأب من حياة الابن، ووقوع الإبن تحت سيطرة أمه، وحيث أن انتزاع الابن لنفسه من سيطرة الأم حتى يصل إلى مرحلة الاستقلال، لا يتم إلا فى ظلال متاعب نفسية عنيفة. فقد عبرّت السيرة عن هذه المرحلة أصدق تعبير وأعمقه. فعلى الرغم من أن الملك سيفا كان يدرك تماما مدى خطورة أمه عليه، وأنه كان يعلم أنها هى التى كانت توقعه فى المهالك، فقد كان يصفح عنها ويعيش مرة أخرى فى كنفها، ويستسلم لسطوتها، وكانت القوى السحرية التى تتمثل فى عاقصة وعيروض تحذره وتنذره، ومع ذلك فلم يكن من اليسير على سيف أن يتخلص من أمه، لقد قال له عيروض محذرا ومنذرا: «ياملك أنت مالك عقل ولا تقبل نصيحة ناصح ما، كأنك قطعة حجر يعثر فيك كل واحد، كيف تريد أن تبقى ملكا وسلطانا ويخدمك الإنس والجان وتدور

يدك على حكماء وسحراء وأرباب علوم الأقلام والأحبار وأنت على هذا الحساب ناقص العقل خرفان، ويدخل عليك بدع امرأة كافرة بالعزيز الديان وتشتت شملك من مكان إلى مكان، وأنت ما أنت عاقل، كأن عقلك ناقص مختلط بجنان. أتعبت قلب برنوخ الساخر، وأقام أياما وليالى حتى خلص لوحى منها بالاحتيال، كأنك ما تعبت فى الحصول عليه، حتى رميته من رقبتك وفرطت فيه».

وتكشف هذه العبارة عن مدى الصراع الذى يعيشه الإنسان فى أثناء انتقاله من طور إلى آخر فى مراحل حياته، فنفسه مفعمة بالرغبات بدافع الإرادة العارمة التى تدفعه إلى تحقيق الذات، ومع ذلك فإن هناك قوة تشده لأن يعيش فى الماضى الذى لا يحقق له أى شئ، ولا مفر للإنسان السوى من أن يتخلص ـ رضى أم لم يرض ـ من كل عقبة تحول دون تطوره، ولهذا فقد اختفت قمرية من حياة الملك سيف، ولكن من الذى قضى عليها؟ إنه ليس الملك سيفاً، بل عاقصة أخته فى الرضاع فى عالم الجن، وهى رمز نفسى آخر للأنا الأعلى أو للنموذج الأصلى على حد تعبير «يونج»، والنموذج الأصلى هو القوة الخيرة التى تعيش داخل الإنسان لتدفعه إلى تحقيق الحياة الكاملة، فلما قتلت عاقصة قمرية، وظهرت بعد ذلك للملك سيف، قال لها: ياعاقصة أتيت تذكّرينى بهمى وغمى بعد ما قتلت أمى. فقالت له والله إنك ارتحت منها ومن فعلها وكيف لا أقتلها وهى فى كل وقت ترميك فى المهالك وهى كافرة بمالك الممالك؟ وحق مقام إبراهيم إن رجعت تذكرها ثانية مابقيت أعود إليك».

ولعل هذا يشير إلى مدى المعاناة التى يعانيها الإنسان فى سبيل التخلص من مرحلة للدخول فى مرحلة أخرى، فعلى الرغم من المتاعب التى لاقاها سيف من أمه، وعلى الرغم من أنها قد قتلت وارتاح منها، فهو مايزال يحن إليها، ولكن النموذج الأصلى أو الأنا الأعلى الذى يرمز إليه بعاقصة يهدده إن هو عاد يذكرها، ولعل هذا يفسر لنا كذلك أن مغامرات الملك سيف الحقيقية فى سبيل تحقيق مآربه لم تبدأ بحق إلا بعد أن انتهى صراعه مع أمه.

والشيخ الطيب الذى يظهر فجأة فى السيرة ليعاون الملك سيفا ويخبره بأنه ينتظر قدومه منذ زمن، ليس سوى رمز للاشعور الذى يطفو فجأة ليذكّره بنفسه وبشخصيته، تماما كما عرفه الشيخ جيار بحقيقة نسبه وباسمه وبالمهام الملقاة على كتفه.

وبهذا نكون قد حللنا السيرة من ناحية الشكل والتكوين البنائى والمحتوى، وفقا لمناهج ثلاثة لا مفر من اتباعها فى تحليل الأدب الشعبى بصفة خاصة، لأنها تسهم جميعا فى الكشف عن شخصية شعب بذاته، كما تسهم فى الكشف عن طموحه وآماله وعن مستوى التعبير الفنى عنده.

إن سيرة سيف بن ذى يزن تعد فى ظاهرها صدى لمشكلات سياسية عاشها الشعب العربى فى حقبة من حقب تاريخه، حينما كانت الحبشة تمثل ركنا أساسيا من أركان العالم المسيحى، وكانت لهذا السبب تهدد مصر، البلد الإسلامى بأنها ستمنع عنها ماء النيل وقد أجاب القاص الشعبى على ذلك بأن النصر له ولدينه، وأن ماء

النيل لن يحجز عنه لأنه يملك كتاب النيل السحرى الذى يجعل مياه النيل تتدفق فى بلاد مصر دائما أبدا. هذه المشكلة السياسية التى تبرز من مجرد تحليلنا لشكل السيرة، يضاف إليها المشكلات الإنسانية والنفسية التى تتضح من خلال تحليل بنائها المركب. ثم إن هذه المشكلات جميعا لا يمكن أن يعبّر عنها الشعب فى الشكل الفنى المتكامل دون أن يعبر من غير عمد عن معتقداته وتصوراته.

حقا إن الحكاية الشعبية معقدة كما يقول: «فيشر»، ولكنها ليست أقل تعقيدا من الشخصية الجماعية.

ومهما يكن محتوى سيرة الملك سيف بن ذى يزن، ومهما تكن درجة التصورات الخيالية بها، فإن الفكر الجمعى لم يكن ليفرزها وينتهى بها إلى هذا الشكل المتكامل، بل إنه لم يكن يهتم بروايتها مع الأجيال، لو لم تكن ترتكز على أحداث تاريخية حقيقية انشغل بها الناس، ربما أكثر مما انشغل بها التاريخ، ونعنى بذلك تهديد الحبشة لمصر فى زمن من الأزمنة بأن تضع العوائق فى سبيل جريان ماء النيل. ولاعجب أن يبرز من اللاشعور الجمعى البطل القومى المخلص، الملك سيف بن ذى يزن ليحسم هذه المشكلة بامتلاك التعويذة الأبدية التى تضمن استمرار جريان النيل فى ربوع مصر بأمر الله وإلى الأبد.